عبد الستار ناصر

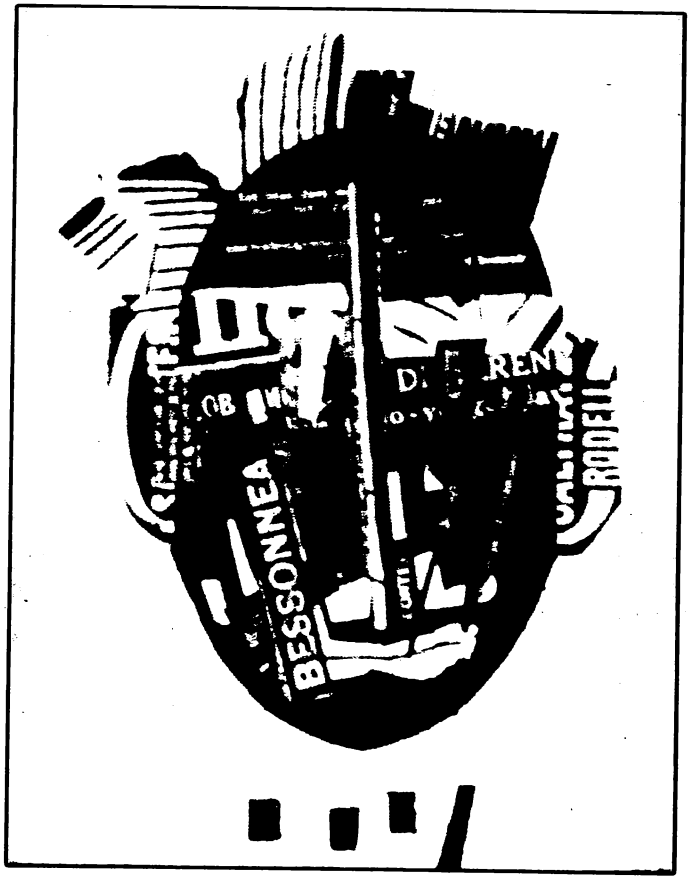

«الحكواتي»

قصص

عبد الستار ناصر

الحكواتي

قصص قصيرة

اسـم المـؤلـف : عبد الستار ناصر
عنوان الكتـاب : الحكواتي
النـاشــــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : سنة ٢٠٠٦
الحقوق محفوظة

Author : Abdul Sattar Naser
Title : ALHakawati (Teller)
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006
Copyright © Al- Mada

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- ابو نواس- محلة ١٠٢ - زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السدير
تلفون: ٧١٧٠٢٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

الفهرست

٠ في المقدمة	7
١ في المطعم التركي	11
٢ شاي بالحليب	17
٣ حفلة السيد الوزير	23
٤ ذهاباً وإياباً إلى الهند	29
٥ التاسع من شباط	35
٦ صانع التوابيت	41
٧ هو الذي بكى	49
٨ قرية بلبع	53
٩ السيد الغراب	61
١٠ خردة فروش	65
١١ المبدع الكبير	71
١٢ بائع الجثث	75
١٣ قشرة جوز الهند	81
١٤ زيارة ميت	89
١٥ في بار العياش	95

١٦ جزء من غيمة 101
١٧ عراق الأمير 105
١٨ الديك الذي اختفى 111
١٩ بعد زواج مايكل دوغلاس 117
٢٠ بياع البلابل 123
٢١ رجل في ليل 129
٢٢ رأس الخس 137
٢٣ حبّة فلفل 143
٢٤ سلطان زمانه 149
٢٥ من الذي كتب الرواية؟ 155
٢٦ بعد منتصف الخوف 161
٢٧ المرآة لا تعرف الكذب 167
٢٨ أعظم الشعراء 171
٢٩ مكب النفايات 177

في المقدمة

أحببتُ القصة القصيرة حدّ أنني لا أعرف اليوم كيف يمكنها أن تستمر حياتي بدونها؟ ولا أدري حتى هذه الساعة عدد القصص التي كتبتها منذ عام ١٩٦٣ يوم أن ظهرت أول قصة لي في الرابع من شباط (فبراير) من تلك السنة المغضوب عليها والتي عشنا فيها أول انقلاب عسكري دموي على حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم.

أرى نفسي منذ أول قصة كتبتها داخل تلك القلعة العصيّة التي لا يمكن فتحها مطلقاً إلاّ لمن يعرف أسرارها. مع أن فتح أبوابها لا يحتاج إلى أكثر من "افتح يا سمسم" حتى ترى الكنوز تحت يديك.

سأقول بأن حياتي دون هذا اللون من الكتابة ما كانت تعني أي شيء، ودعوني نيابة عنكم أسأل نفسي:

ـ كيف يمكنها أن تستمر حياتي بلا قصص أحكيها لكم؟

أنا مؤمن ـ وسعي كتابي هذا ـ أن القصة القصيرة أنقذتني من البلاهة والموت والفراغ والجنون، ذلك أنني دونها ما كنت أفهم كيف تستمر الحياة، وقد يبدو كلامي هذا محض تبرير عابر حتى أعطي لنفسي الحق في نشر كتاب آخر يضاف إلى أعمالي، بينما الحقيقة هي غير هذا تماماً، إذ أن كتابة القصص تحتاج مني ومن سواي إلى اكتشاف المستور

وإضاءة العتمة، وتحتاج إلى كمية من التأمل والقراءة وإلى حفنة من التجارب تضاف إلى مخزون الذاكرة، وليس من السهل تصدير حالة ما أو استيراد حالة غيرها إلاّ بصعوبة لن يعرفها لاحقاً غير من عرف الصنعة واكتوى بنارها المقدسة.

هذه المجموعة من القصص، هي آخر ما كتبته وأنا في عمّان وجدّة، منذ خروجي من العراق عام ١٩٩٩ وحتى يومنا هذا، وقد تكون بحاجة إلى بهارات بغداد وحرقة تأريخها العظيم، لكنها ستبقى القصص التي أبدعتها ذاكرتي وجاءت بها ذكرياتي ثم أودعتها مذكراتي (أمانة) بانتظار عودتي إلى وطني الذي أبداً ما فارقني ولا ساعة واحدة منذ غيابي عنه مرغماً.

* *

هذه القصص جاءت قصيرة فعلاً واحتوت الصفة التي تستحقها، والسبب يكمن في أنني على سفر، ومن كان على سفر عاجل مغفور له أن يكتب ما يشاء في الوقت المسموح له، مع أنني حاولت أن أحفظ ماء الوجه لهذه الكتابات وأمنعها من السقوط في لجة العجالة والسرعة واستعجال النشر، بل جاءت وكما تمنيت لها على أفضل ما تكون، مع أنني سميتها "حكاياتي" حرصاً على صفة القصة القصيرة التي يعشقها سواي ممن يرى في كل حكاية يكتبها "قصة"

أجل، هذه حكايات كتبتها في العاصمة عمّان، لا أريد أن أقول عنها غير أنها حكاياتي على طريقة "خورخي لويس بورخس" الذي يرفض تسمية كتاباته بالقصة القصيرة، بل ينعتها ويوصفها بالحكاية مهما كان أسلوبها راقياً ومضمونها أكثر إعجازاً، وهنا لا أريد التشبث

بما فعله أستاذنا "بورخس" فأنا لا أملك من بصيرته إلاّ البصر الذي منحته الطبيعة لي، وعساني أتمكن في كتاب صغير كهذا من إعادة نفسي إلى نفسي التي ضاعت ذات يوم في بغداد بين سندان الرعب ومطرقة الخوف، ضاعت بين غرور تبرأت منه وغوايات أخذتني صوب مفازات بعيدة عن الروح تمكنتُ أخيراً من الخلاص منها.

ودعوني أقل لكم باختصار موجع: إن كل ما أملكه اليوم هو أنني رأيت.

عبد الستار ناصر

٢٠٠٤

ـ سأعطيك ما تريد إذا قتلته الليلة.

أجاب القناص:

ـ صحيح هي مهنتي، لكنني لا أقتل الناس اعتباطاً.

قال السيّد محفوظ:

ـ هذا الرجل حطّم حياتي، وسوف أدفع لك ما تشاء إذا اختفى من أمامي، سأعطيك شيكاً على بياض أو نقداً إن شئت ذلك.. ستذكر المبلغ وتأخذه فوراً.

هزّ القناص رأسه وهو ينظر صوب السماء:

ـ يا سيّد محفوظ، أنا لا أقتل الناس عشوائياً، في الحرب كنت أنال منهم، نعم، لكنها حالة حرب وتلك كانت مهنتي، أن أقتل العدو الذي يتربص بي كما أتربص به، أما حالات الثأر الشخصية فهذا ما لم أفعله من قبل.

قال السيد محفوظ وهو يتشبث بآخر قشة:

ـ ستقتله من أجلي، أريدك أن تقتله حتى نمسح الجرائم التي قام بها ونمنع الجرائم التي سيقوم بها، أنت لا تعرفه، ولو كنتَ تعرفه جيداً كما أعرفه أنا لذهبت إليه تواً وأنقذت الناس من شروره ونرجسيته ومثالبه الكبرى.

هنا قال القناص:

ـ يبدو أنك على حق فيما تقول، وسوف أنجز لك المهمة، وبعدها لا أريد أن أراك.. ستدفع لي ثلاثة آلاف دولار وتَذكر بأنني لا أريد بعدها أن أراك...هذا هو الشرط الوحيد.

قال السيد محفوظ:

ـ سأدفع لك أكثر من ذلك، المهم، سوف تراه مساء هذا اليوم في المطعم التركي، هناك في الطابع التاسع، هل تعرف المطعم التركي؟

ـ أعرفه طبعاً.

ـ وسوف يأتي بصحبة امرأتين، إحداهما تشبه سلمى الحايك والثانية تشبه سوزان بليشيت.

ابتسم القناص:

ـ أنا لا أعرف سلمى ولا سوزان.

فوراً أخرج السيّد محفوظ من جيب معطفه صورة تجمع بين امرأتين إحداهما تشبه سوزان بليشيت والثانية تبدو كأنها سلمى الحايك فعلاً:

ـ خذ الصورة، مزقها بعد إنجاز العملية، احرقها، ولكن دعها معك الآن حتى تعرف الرجل الذي ستقتله الليلة.

قال القناص:

ـ ربما جاء وغدٌ آخر معهما، هكذا مصادفة، فكيف سأعرف الرجل الذي نريد؟

أجاب السيد محفوظ بسرعة كما لو أنه يرى المشهد أمامه تماماً:

ـ اطمئن، سيكون وحده معهما، هو يرتدي ربطة عنق حمراء كما الدم، هكذا يأتي في المناسبات الخاصة، بدلة سوداء وربطة عنق حمراء، ويمكنك أن تراه من أية مسافة تشاء.

نظر القناص إلى الصورة مرة ثانية:

ـ إنهن في غاية الجمال.

قال السيّد محفوظ:

ـ سوف يتحرران من سفالته الليلة.

سأل القناص:

ـ هل أنت مصمم على قتله فعلاً؟

راح السيّد محفوظ يتحرك حول جسد القناص وهو ينطق الكلمات ببطء وهدوء:

ـ أريدك أن تضربه مرتين، فأنا برغم حقدي عليه لا أريده أن يتعذّب، رصاصة واحدة لا تكفي، وحتى نطمئن على موته ستضربه برصاصتين، ولهذا سأدفع لك أربعة آلاف دولار بدلاً من ثلاثة، الرصاصة الواحدة بألفين... اتفقنا؟

ابتسم القناص:

ـ كما تريد يا سيد محفوظ، والذي يطلق رصاصة واحدة يمكنه أن يطلق رصاصتين.

قال محفوظ كمن يسدل الستارة على حدث مضى وانتهى:

ـ هذا كلام جميل ومعقول، من يطلق رصاصة يمكنه أن يطلق رصاصتين..

وراح يضحك عن فرح عارم، ولم يشاركه القناص ضحكته!

* *

في آخر المساء، بعد أن تسلّم القناص ثمن القتل مسبقاً، حدّد الزاوية التي سينتظر فيها ضحيته، هذه أول مرة يقتل فيها إنساناً خارج

المعركة، ثمة فارق بين قتل وقتل، هذا ما كان يشعر به قبل أن يصوب بندقيته نحو مكان الموت القادم..

رأى بمنظاره المرأة التي قال عنها محفوظ بأنها تشبه سلمى الحايك (سمرة شهوانية وجسد يتهادى طرباً على صوت الموسيقى التركية).. ثم جاءت تحت عينيه المرأة التي تشبه سوزان بليشيت، جسد يتلوى كالثعبان في دائرة تتماوج فيها ألوان قوس قزح، كؤوس نبيذ تغازل الشفاه وأغنيات لا يعرف ماذا تقول، وإذا بالرجل الذي يرتدي بدلته السوداء وربطة عنقه الحمراء كما الدم يظهر بينهما، بين سلمى وسوزان، وهو يلبس قناعاً أسود كالذي يراه في شخصية (زورو) ذاك الفارس المقنع الذي طالما استهواه في طفولته.

تساءل القناص وهو يستعد للقتل:

ـ هذه ليست حفلة تنكرية، لماذا دون غيره من يلبس هذا القناع؟

ثم هيأ نفسه لصيد الفريسة وهو ما يزال يحكي مع نفسه:

ـ يبدو أن السيّد محفوظ على حق في قتل هذا المعتوه، معه أجمل النساء وهو كما القراقوز يلبس قناعاً في مطعم.

وفي لحظة لا حساب لها مع الزمن، انطلقت رصاصة مكتومة الصوت وانغرزت هناك بين ضلوع الجسد الذي هوى.

سقط الرجل ذو البدلة السوداء وربطة العنق الحمراء على كومة من الصحون بعد أن مشى جسده المطعون مسافة أمتار وهو يتلوى عن ألم رهيب.

راحت سوزان وسلمى تصرخان هلعاً، بينما القناص يحاول الضرب ثانية، لكن الناس في المطعم صاروا كما الجدار بينه وبين الفريسة، ولم يكن أمامه من حلّ غير أن يترك المكان بسرعة.

مدّت سوزان أصابعها ورفعت القناع عن الوجه الذي ما يزال يتألم وهو يكرر:

ـ لقد اتفقنا على رصاصتين، لعنة اللّه عليك، لقد اتفقنا على رصاصتين.

وبرغم ذلك، لم يذهب السيّد محفوظ إلى القناص ثانية، فقد كان الشرط الوحيد (بينهما) هو أن لا يراه بعد ذلك!

٧ شباط ٢٠٠٤

ليس مستغرباً أن الجريدة نشرت له قصة "الحيزبون" وفي أسبوعها الثاني ظهرت حكايته المضحكة "بيت القراقوز" وما كان مستحيلاً أنه جاء بنفسه إلى مبنى الجريدة في القسم الثقافي وأخبرنا أنه هو نفسه رباح السيّد مفتاح مؤلف "صندوق الساحر" وهي القصة الثالثة التي جعلتنا بحق؛ نسأل عن هذا النابغة الذي أدهشنا في كل اجتماع أسبوعي وما كنا نعرف عنه سوى اسمه وعناوين قصصه العجيبة.

ذلك أنه، في الصباح الذي جاءنا فيه رباح السيّد مفتاح، شعرنا (بالعار) يحتوي مساماتنا، فهذا الكاتب الذي أدهشنا جداً، لم يكن غير عشرة أعوام فقط، حتى أننا لم نعرف ماذا نقول في (حضرته).. تفضل يا أستاذ؟ ماذا تحب أن تشرب؟ أهلاً بك يا سيّد رباح؟ لا ندري..

كان أصغر واحد منا في القسم الأدبي قد تجاوز الأربعين، لم يكتب نصف قصة توازي "الحيزبون" ومن المحال أن يكتب "صندوق الساحر" أو "بيت القراقوز"، بينما السنوات العشر التي اسمها رباح السيّد مفتاح كتبت ذلك بأسلوب يحاكي موباسان وبشاعرية أين منها لوركا ونيرودا..

كان ذاك الصباح من أسوأ ما بدأنا به نهارنا، غرقنا في الحيرة والخجل، إذا به يقول:

ـ معذرة أساتذتي، أخبروني بأن لي مكافأة عما نشرته في الجريدة.. أنا لم أصدق ذلك طبعاً، لكنني أتيت للسؤال.

قلت له، وأنا في حال من الذهول:

ـ نعم، هذا مؤكد، يمكنك الذهاب إلى أمين الصندوق. ثم قلت له وأنا أتموج في هذياني:

ـ أنت مبدع خطير فعلاً.

كان يبتسم مثل أي طفل آخر، إذا به يقول:

ـ كم أتمنّى لو أتمكن من نشر روايتي، فقد أخذت مني أكثر من شهرين.. أما قصصي فهي لا تأخذ مني غير ساعة من الوقت..

لن أقول (أدهشني) قوله، بل أرعبني ما كنت أسمعه، فهذا الطفل الذي يحبو عند العاشرة من العمر، لا يعرف حقيقة المعجزة التي تنام وتصحو بين ضلوعه الغضة، إذا به يتكلم عن رواية أنجزها في شهرين!

رحنا نحدق إلى هذا الكائن الذي حطَّ في غرفتنا، لا نعرف ماذا نفعل وبأية لغة نحاكيه، لكن رئيس القسم الثقافي قال فوراً:

ـ هل تحب أن تشرب الشاي؟

إذا به يؤكد:

ـ الشاي لذيذ، أنا أُحب الشاي مع الحليب.

قلت له وأنا أخفي دهشتي وراء ابتسامة ماكرة:

ـ هل جئتنا بقصة جديدة؟

قال:

ـ عندي عشرات القصص، أنا أشكركم على أنكم نشرتم ثلاثاً منها، هل أعجبتكم فعلاً؟

كدنا نقول بصوت واحد: إنها رائعة.

إذا به يمد أصابعه النحيلة إلى جيب معطفه الشتوي، أخرج خمس أوراق مبلّلة، قال وهو في حالة من الحيرة لمن يعطيها:

ـ هذه آخر قصة كتبتها البارحة بعد منتصف الليل.

أخذها المشرف الثقافي وراح يقرأ عنوانها بصوت مسموع:

ـ عورة القرد.

صار الصمت يرعبنا والدهشة تلبسنا مثل قيد سميك، من أين جاء هذا الصبيّ الغريب؟ إنه، ودون أن يدري طبعاً، يخترق مباهاتنا ورضانا عن أنفسنا، لا أحد منا يعرف ما سوف يقول في حضرته، أنا وحدي الذي كسرت زجاج الصمت وقلت له:

ـ كيف تكتب يا رباح؟ أعني كيف تأتي إليك فكرة القصة قبل أن تبدأ بها؟

قال بسرعة كمن حفظ الكلام عن ظهر قلب:

ـ الفكرة لا تأتي؟ أنا الذي أمضي إليها وأبحث عنها، كنت أسمع آرنست همنغواي وهو يقول "الأفكار متوفرة في كل مكان في الشوارع والبيوت والحانات وما عليك غير اختيار ما شئت منها لتكتب قصة".. لكنني على العكس، معذرة، أبحث عن شيء غير ما أراه في الشارع والبيت.

أفزعني قوله اللاّذع ((أسمع همنغواي)) ولم يقل أقرؤه فهو كلام أكبر من سنواته بكثير.. وقبل أن أفكر في سؤال آخر جاء الشاي بالحليب، راح يشربه مثل أيِّ طفل في العاشرة، يتلمظ به ويحتسيه بلذة..

تركنا كل شيء، وذهبنا إلى اكتشاف هذا الصبيّ المبدع الذي (يرضع) الحليب مع الشاي وهو يقول:

ـ أنا أحب كتابة القصص القصيرة، وفي كل يوم أكتب قصة واحدة، أبدأ بكتابة العنوان ثم تأتي الحروف والمعاني بسرعة البرق..

لم أصدق ما سمعت، قلت له مستغرباً:

ـ هل تكتب العنوان أولاً؟ هذا غير معقول، لا أحد يفعل ذلك يا رباح.. العنوان يأتي بعد أن ننتهي من كتابة القصة.

قلت له (يا رباح) كما أقولها مع أي طفل من أولادي، إذا به يقول وقد انتهى من احتساء الشاي بالحليب:

ـ العنوان بالنسبة لي هو(الطُعم) للسمكة التي سوف أصطادها، وكلما جاء العنوان مثيراً وجميلاً ومغرياً تكون القصة بدورها أكثر إثارة وإغراء وجمالاً.

اتصل بنا أمين الصندوق وقال إن المكافأة جاهزة، فقال له رئيس القسم الثقافي أن يتكرم ويأتي بها إلى الأخ رباح السيّد مفتاح فهذه أول مرة يتسلم فيها مكافأة عن النشر..

وبعد أقلّ من خمس دقائق جاءنا أمين الصندوق يسأل عن (الكاتب) الذي يستحق تسعين ديناراً عن ثلاث قصص نشرتها الجريدة، إذا به أمام صبيّ لم يتجاوز العاشرة، ودون أن يتعمّد إهانته قال:

ـ هذا ؟!

قلنا بصوت واحد:

ـ نعم.

وما ان تسلّم رباح السيّد مفتاح تسعين ديناراً حتى ابتسم كما الأطفال حين يتأرجحون في أيام العيد:

ـ هذا المبلغ لي؟

قلنا بصوت واحد:

ـ طبعاً.

فقال وقد طوته الدهشة:

ـ عن ثلاث قصص فقط؟!

قال رئيسنا:

ـ أنت تستحق أكثر من ذلك.

وقف رباح السيّد مفتاح وسط الغرفة، لا ندري كيف نفسّر ضحكته وهو يصافح كل واحد منا، وقبل أن يغادرنا راح يسأل:

ـ ترى، هل يمكنكم نشر روايتي على حلقات؟

ما كنا ندري أنه جاء بالرواية؟ محشوة بين طيات معطفه، رحنا بعد خروجه من الغرفة نتسابق في أن نقرأ ما كان يكتبه ذاك الطفل العجيب.. إذا بنا في اليوم التالي، وبعد أن انتهينا من قراءة الرواية ـ عنوانها المربّع الحرام ـ نكفّ عن النظر في ملامح بعضنا خجلاً واستحياء، إذ ليس من المعقول أن يكون ذاك الصبيّ أفضل منا، مع أننا جميعنا نحتسي القهوة السوداء المرّة وهو يشرب الشاي بالحليب ويكتب العنوان قبل كتابة القصة، بينما نحن منذ عشرات السنين نكتب القصة قبل اختيار العنوان!

تبدأ روايته بأخطر قشعريرة أصابت قلوبنا:

ـ ثمة متسع للشك، فلا يصير الورد نديّاً حتى في وعاء من البلوّر، ثمة من يحسب عليك البحر، خوف أن يجفّ فتتسخ ثيابه، ثمة من يناديك بأسماء عديدة كي يعزلك في المتاهة ويؤلب عليك الخفافيش!

أنت محدثُ ضجة في المربع الحرام[1]

* *

القشعريرة التي أصابت أجسادنا، صارت تأتي معنا كل صباح إلى الوظيفة، مع أن رباح السيّد مفتاح كان قد اختفى تماماً منذ زيارته الأولى.. والأخيرة.

---

(١) من ديوان (كبرياء الصفة) للشاعر الصديق عثمان حسن .

في تلك الساعة فقط، أيقنتُ أنني قصير، مع أنني أعرف ذلك منذ أربعين سنة، لكنني أعاند نفسي وسواي وأقول بأنني على جانب من الطول ولست قصيراً كما يظن أقراني.

هذه المرة، وأنا في حفلة السيّد الوزير، تأكد لي أنني قصير برغم الحذاء العالي الذي يخفيه ذيل بنطلوني، نظرت إلى ضيوف الوزير بشيء من الريبة، لاسيما هاشم الزعفران المدير العام المشرف على شؤون المسرح وسكرتير الوزير في الوقت نفسه، فهو يتحرك في الصالة كما البهلوان، يصافح العشرات من النساء والرجال في أقل من دقيقتين، كأنه في سباق مع غيره لإثبات ولائه للسيّد الوزير!

رأيت ثلاث حمامات بيض على شرفة القصر، أخذن اهتمامي ونسيتُ نفسي وأنا أقترب نحوها، لم أفطن إلى معالي وزير الثقافة الذي دفعته دون وعي مني، إذا بهاشم الزعفران يمسك الوزير خوف أن يسقط أرضاً أمام كبار الضيوف، ثم جاء نحوي وكاد يصفعني لولا حرصه على حفلة السيّد الوزير.

لم أفهم حقيقة ما جرى، ولماذا شتمني هاشم الزعفران بصوت خافت، حتى أخبرني أحدهم بما فعلته مع الوزير الذي كاد يسقط أرضاً

أمام الضيوف، وعندها نظرت إلى الحمامات البيض الثلاث وقد طارت إلى مكان بعيد عن شرفة القصر الباذخ.

لا أظنني دفعت معالي الوزير، بل مسّه قميصي وأنا أخطو بسرعة نحو الحمامات البيض، لكن الوزير نفسه تحرك خائفاً من وقع الريح الخاطف الذي أثاره قميصي حين ارتطم بجزء من بدلته السوداء، والوزراء عادة وكما أظن يتوجسون من أي شيء طارئ غير محسوب بحساب حتى لو كان محض ريشة تدور فجأة في الهواء.

تمنيت لو أنني خرجت من هذا المكان، هاجس غامض يركبني ويقول لي: أنت غير مرغوب فيك، وأرى هاشم الزعفران يتلصص بنظراته صوب مكاني، أخافني فعلاً وهو يقضم شفته السفلى كأنه يحذّرني من أيّ فعل طائش آخر، أنا مسؤول مكتبة الوزارة منذ عشرين عاماً وأفضل من يختار ويشتري ويؤرشف المعاجم والمناهل والموسوعات وأمهات الكتب التي يحتاجها قراء الوزارة أو المشاركون فيها من أدباء وتلاميذ الدكتوراه، صار حالي في هذا المكان أشبه بالفأر المرعوب من عشرات القطط السمان وهي تستعد للانقضاض عليه.

وقفت في مكاني، مجرد تمثال من لحم ودم، لم أتحرك طوال ساعة، أراقب ابتسامات النسوة وضحكات الرجال تتشابك في لجة من دخان كثيف، وتمنيتُ ثانية لو أنني لم أكن بينهم، تذكرتُ أصدقائي هناك في مقهى علي بابا، لابد أنهم يتمازحون الآن بشأني وكيف تورطت في حضور حفلة لا تناسبني مع نوعية من البشر لا أنتمي أبداً إليها!

بعد ساعة من زفير لا شهيق له، اقتربت من هاشم الزعفران، وقبل أن أرجوه السماح لي بترك المكان والذهاب إلى "علي بابا" سمعته يكرر:

ـ إياك أن تقترب من السيد الوزير.. يا لك من أحمق.. قف هنا ولا تتحرك.

أحمق؟ ليس من حقي فعل أيّ شيء سوى احتساء هذا الشراب الذي يحمله الساقي ذهاباً وإياباً.. وأنا في ذهابه أشرب وفي إيابه أحتسي.. وإياك أن تقترب من السيّد الوزير فما أنت غير عبد ذليل و.. أحمق، والعجيب أن هاشم الزعفران عاد بسرعة إلى ضيوفه الكبار يبتسم مع هذا ويحني جذعه في حضرة ذاك، بل يأتي بالشراب والسجائر الفاخرة لكل واحد منهم، يتسلّى بأعصابي وهو يكرر: إياك أن تقترب من السيّد الوزير.. ثم يمضي كما الطاووس إلى النساء اللّائي يحكي لهن القصص والقفشات، يضحكن لها حدّ الهستيريا.

هاشم الزعفران، المشرف على شؤون المسرح، لا يعرف بريخت ولا شكسبير ولا بيراندللو ولا نعمان عاشور، ولم يشهد مسرحية في حياته إلاّ ما يراه على شاشة التلفزيون والمرة الوحيدة التي أخذته فيها (أنا) إلى مسرحية (بانتظار غودو) قال كلمته التي لا أنساها:

ـ هو هذا مسرح لو كلمات متقاطعة !

* *

لماذا جئتُ هذا المكان؟ هو نفسه هاشم الزعفران أراد ذلك، قال كمن يتوسل: عليك أن تساعدني، فهذه ليلة من ألف ليلة، وعلينا أن نؤكد لمعالي الوزير أننا بمستوى المسؤولية، وهذا يعني بمستوى رغباته في تحقيق حفلة مهيبة كهذه.. لكنه عافني من أول لحظة دون ذنب سوى أنني اقتربت من شرفة القصر حتى أرى الحمام الزاجل!

اقتربت إحداهن تسألني:

ـ هل تعمل في خدمة السيد الوزير؟

قلت لها وأنا أغرق في نار تستعر عميقاً تحت جلدي:

ـ أنا لا أخدم أحداً، أنا أعمل في مكتبة الوزارة.

تركتني بسرعة، إذا بهاشم الزعفران يمضي إليها ويحكي معها، ثم جاء يمشي نحوي مثل ماكنة معطوبة وقد تغيرت ملامحه تماماً:

ـ اسمع أيها الكلب، جميعنا في خدمة سيدنا الوزير، وأنت أول خادم بيننا، وغداً ستعرف نتيجة أقوالك الجوفاء.

حاولت أن أقول شيئاً، لكنه رجع إلى حفلته الكبرى، والغريب أنه عاد يضحك مع الضيوف كما لو أنه لم يغضب ولم يهتز كرشه ولم يشتمني.

أسمع ما يشبه الصدى يتموج تحت عظامي: أنا لست كلباً، قد أكون قصيراً، لكنني لست كلباً..

وهاشم الزعفران يضحك مع الكائنات كلها إلاّ حين يراني.. يضحك مع السيّدة الحنطاوية فارعة الطول التي تعلك الحروف حتى تبدو مثل بقية الشقراوات اللواتي يحتسين البيرة، يضحك مع زوجة السيّد الوزير ويحني رأسه في كل مرة تسأله فيها عن شيء ما.. يضحك مع قطة مدام سنية التي صار اسمها "ساني" بل يضحك حتى مع الصور المعلّقة على جدران القصر، فهذا الباشا هو جدّ السيّد الوزير، وذاك عمّه، وبينهما صورة خالته المصون حتماً.. هاشم الزعفران لا يكف عن ابتساماته إلاّ حين يراني، كما لو أنني شيطانه الأبدي الوحيد!

وأنا بين مروج ابتساماته أشرب الخمرة ذهاباً وإياباً، حتى أدركتني النشوة في أعظم ساعاتها.

* *

في لحظة جاءت عفواً من زمن آخر، رأيت نفسي أصرخ:

ـ اسمع يا هاشم الزعفران..

وقبل أن أقول أي شيء، أصاب الصالة وقر رهيب، حتى أنني رأيت الوزير نفسه يحدق بي من وراء غشاء شفيف بعد أن أطال النظر إلى سكرتيره ومديره العام المشرف على شؤون المسرح، هاشم الزعفران، يستفسر بعينيه عما يحدث.. لكنني لم أعبأ بما يدور بين هذا وذاك، وجدت نفسي أقول بصوت قوي حزين:

ـ إذا أحببت أن تكون خادماً ذليلاً يا هاشم الزعفران فلا أحد يمنعك من ذلك، الإنسان هو من يختار مصيره بيديه، وإن كنت كلباً يا هاشم الزعفران، فهذا لا يعني أن من يعمل معكم هو كلب مثلكم، والمهم أن تعرف من يكون شكسبير قبل أن تكون مسؤولاً عن شؤون المسرح.

مرت سنوات وقرون، وسافرت أقمار ومجرات وشموس والقاعة في حالة من الصمت، بحيث أنك سوف تسمع النسمة إذا خطر ببالها أن تمر عليك.. ولم يقطع حالة الرعب والتوجس غير صوت الوزير وهو يقول:

ـ ماذا جرى؟ ماذا يحدث هنا يا هاشم؟!

في لحظة ثانية من زمن آخر، سقط هاشم الزعفران على الأرض، سقط مثل ثور مطعون يلهث ولكن دون حراك، كنا نشمّ عطر النعناع وزهر الخزامى ورائحة البنفسج والمسك والعنبر تنهمر من خدود النساء وهن يسكبن خوفهن في حضرتي وقد شعرن أخيراً بوجودي.

اقترب معالي الوزير من سكرتيره الذي صار أشبه ما يكون بجثة، ثم جاء نحوي كما لو أنه يترنح، يسألني بهدوء كاذب:

ـ هل لك أن تخبرنا بما حدث؟

ربما أصابني الجنون، أو هي لوثة في رأسي صارت تحكي عن أشياء غريبة لا شأن لها بما جرى في حفلة السيّد الوزير، رأيت نفسي أهتز مثل سعفة وأنا أقول بصوت متكسر:

ـ أنا لست قصيراً إلى هذا الحد، أنا أطول مما تظنّون.

رحت أكرر ذلك وأنا أنظر في وجه الوزير، أنظر صوب السيدة الحنطاوية التي تعلك الحروف، إلى مدام سنية التي صار اسمها ساني، إلى الباشا والخالة المصون حتماً، أنا لست قصيراً، أنا أطول مما تظنّون.

* *

جاءت حماية السيّد الوزير، أخذتني إلى مكان بعيد، مرت أكثر من ثلاث ساعات لا أدري ماذا جرى خلف ظهري في ذاك القصر المنيف، تمنيت أن أكون بين أصدقائي في مقهى علي بابا، وفي ثلاث ساعات بين العتمة والرطوبة والزئير علّموني أشياء كثيرة جداً.

منذ حفلة السيّد الوزير، وما بعدها بثلاث ساعات، لم أعد أعرف ما إذا كنت قصيراً فعلاً أم أنني قصير جداً؟

نيسان ٢٠٠٤

هي تدري كم المسافة من عمّان إلى مدريد، وتعرف ثمن التذاكر نحو بودابست أو الصين، لكن سميحة نور الدين الحمارنة تجلس كل يوم في مكتب السفريات منذ التاسعة صباحاً حتى السادسة بعد غروب الشمس تكتب وتقطع التذاكر صوب طهران والمنامة وروما وباريس، مع أنها لا تعرف الطريق إلى المطار، بل تكتفي بحلم واحد يتكرر: أن ترى الهند ذات يوم قبل أن تتسلق الشيخوخة ثيابها وتكسر ملامحها الطرية.

الكرة الأرضية معلّقة خلفها على حائط عريض، تدور إلى الوراء عشرات المرات في اليوم الواحد حتى ترى المسافات بين مقدونيا ولاهاي، بين إيرلنده واليابان، وكيف تمضي الطائرات من دمشق إلى بحر الشمال وتحطّ على أرض الدنمارك، وحين يسألونها عن التذكرة صوب بولونيا أو كندا ولماذا يزداد سعرها عاماً بعد عام، سوف تشير بإصبعها إلى الخارطة حتى يفهم المسافر هول المسافة إلى وارشو أو أوتاوا مع أنها تبتسم وتهمس مع نفسها:

ـ ألا يكفي ذهابكم إلى هناك لرؤية الجنة؟

ثم يمضي المسافرون ويهدأ المكان إلاّ من رغبتها الجامحة في الذهاب

إلى الهند تسرح في نيودلهي وتمرح في بومباي وتمشي في شوارع بلاري وتشمّ النسيم على خليج البنغال ولا تنسى طبعاً رؤية (تاج محل) حتى تستذكر قصص الحب الكبرى.

وبرغم كل ما سمعته عن سحر برلين وطنجة، وما تعرفه من أسرار مصر وبغداد، وخفايا لندن واستانبول، إلا أنها تزداد شوقاً إلى الهند دون غيرها من بلاد الله، حتى أنها تحفظ عن ظهر قلب كيف ترسمها من الذاكرة، فهي ساق سميكة من الأرض تمتد بين بحرين ثم تكبر عند بطنها لتضرب النيبال شرقاً وباكستان غرباً، بينما يلاصق كتفها جبال الهملايا لتمضي شمالاً وهي تغازل طاجكستان وتنام هادئة بعد رقص وغناء شعبي طالما داعبها منذ أن اشتغلت في مكتب "أبو غوش" للسفر والسياحة.

في لحظة خاطفة من زمن الرغبات، دخلت امرأة على جانب من السمنة والترهل، عجنت ملامحها بكمية من الماكياج تكاد تسيل على خديها وهي تجلس أمام سميحة، تلهث عن تعب وربما عن مرض في قصباتها، ثم فتحت حقيبتها وأخرجت جواز سفرها وهي تقول بصوت يشبه القرع على طبل أجوف:

ـ من فضلك يا آنسة، ذهاباً وإياباً إلى الهند.

ثم ابتسمت بعد أن تقلّص ماكياجها عند كسرة ذقنها وهي تمد أصابعها إلى حفنة من الدنانير في حقيبتها وتسأل

ـ ما هو أقرب موعد على "الملكية"؟ أرجو أن تكون هناك رحلة يوم الخميس... يعني بكرة.

إلى الهند مرة واحدة؟ ولماذا أنتِ أيتها العجوز من يسافر إلى

هناك؟ حتى أنها لم تسأل عن ثمن التذكرة، كما لو أنها سافرت إلى الهند أكثر من مرة.. هذا الماموث الملطخ بالبودرة وأحمر الشفاه والنيفيا وقشور التفاح يسافر إلى الحلم الذي طال وامتد، بل وتشعب في العروق والمسامات، تحققه هذه السمينة دون أن يعني لها أي شيء، بينما هي (سميحة نور الدين الحمارنة) تجلس مئات الساعات في هذا المكتب الحزين تفكر في رحلة واحدة إلى الهند التي عشقتها منذ أول الطفولة والصبا وما من أحد يدري بها أو يفكر في حلمها الخفي الذي ينام ويصحو معها منذ سنين.

- عندك فكرة عن ثمن التذكرة يا مدام؟

قالت السمينة بسرعة كمن يرد إهانة عنه:

- طبعاً ، هذه رابع مرة أسافر فيها إلى هناك.

أربع مرات إلى الهند؟ أية قسمة ضيزى في هذا العالم العجيب؟ وقفزت من بين أسنانها كلمات ما كان عليها أن تنطقها في مكتب للسياحة والسفر:

- هل تدرين يا مدام، أنا أحلم بزيارة الهند مذ كنت في الثامنة من عمري، قرأت عنها أكثر مما قرأت عن أي مكان في الدنيا، لكنها تأتي وتذهب مثل أي حلم بعيد المنال.

راحت السمينة تضحك، وعاد القرع ثانية على ذاك الطبل الفارغ يملأ المكان:

- إذا كان السفر إلى الهند حلماً، يمكنك أن تأتي معي وعلى حسابي.

أحسّت سميحة في لحظة من الزمن، أن هذه السمينة صارت من

أجمل نساء الأرض وأكثرهن كرماً وطيبة، حتى إذا كان قولها محض وعد كاذب سيمضي مع الرياح، بينما راحت السمينة تكرر:

ـ لا مانع من تأجيل الرحلة يوماً أو ثلاثة أيام حتى تكوني جاهزة للسفر.

قالت سميحة وهي توشك أن تبكي فرحاً:

ـ أنتِ إنسانة كبيرة فعلاً، لكن ما ذنبكِ في أن تخسري أموالكِ على حلم لا يعنيك؟

بينما المرأة التي تريد السفر إلى الهند راحت تحكي عن شيء يبدو أبسط بكثير مما تراه سميحة:

ـ ستكونين معي بإذن الله، تذكرتك على حسابي، وعندي في الهند أكثر من بيت، وسوف نرى البلاد شمالاً وشرقاً وغرباً، فأنا أعرف الكثير عن هذه الجنائن الغريبة.

وكما الحلم الذي عشش في رأس سميحة وكان ينمو كما تنمو الأعشاب البرية، تم كل شيء بسرعة، جواز السفر والحقيبة ورعشة العجائب التي تهز الروح والجسد، رأت نفسها تحت سقف المطار، في صالة المسافرين، تسمع أسماء المدن التي سيمضي إليها مئات المسافرين، تونس، لشبونة، أمستردام، بوخارست، أثنيا، بلغراد، هلسنكي، وتبتسم مع نفسها، إنها مثل بقية خلق الله سوف تسافر إلى أحلى بقاع الدنيا وترى البلاد التي عاشت بين طيات فراشها، على وسادتها، منذ أعوام بعيدة، وسوف ترى الغيوم والسحب البيض البراقة من نوافذ الطائرة وهي تحلق في السماء إلى مكان بعيد جداً عن مكتب "أبو غوش" للسياحة والسفر.

المرأة السمينة تجلس قربها، تحكي عن أول رحلة إلى الهند وكيف عاشت أعظم حالات الفرح وهي تحطّ على أرضها قبل عشرة أعوام، تحكي عن الشوارع الخلفية المزحومة بالحرمل والبخور والشموع والسحرة الذين يغطّون بالنوم على كومة من المسامير، عن طعام الهنود الحارق المملوء بالفلفل والبهارات والشطّة اللاّذعة التي تكزبر اللسان.

فات الوقت بسرعة البرق وسميحة تصغي إلى عجائب الهند وغرائبها حتى هدأت الحركة في صالة المغادرين وشعابها، هدوء مريب لم يعد سميحة تسمع أي شيء، كما لو أن الدنيا بأسرها أصابها خوف مبهم، ليس من صوت وما من أحد يمشي في الممرات، والكراسي فارغة تماماً إلاّ من هسيس خفي يأتي من فتحة باب أو خصاص نافذة يطرقها نسيم بارد، راحت سميحة تسمع من وراء هبوب الرياح صوت المرأة السمينة وهي تقرع ثالثة على طبل أجوف:

ـ متى ستكتبين تذكرتي رجاءً؟

مدّت يدها بتذكرة السفر، ذهاباً إلى الهند وإياباً إلى عمّان، أربعمائة دينار فقط ثمن الرحيل إلى ذاك الفردوس الباهر، وقبل أن تغادر المرأة السمينة مكتب "أبو غوش" صوب الهند قرأت اسم "سميحة نور الدين الحمارنة" على تذكرة السفر.

٢٢ آذار ٢٠٠٤

التاسع من شباط!

أربعمائة صورة فوتوغراف (أبيض وأسود) لم أنتبه إلى الرجل الذي ظهر فيها كما الشبح، منذ أعوام بعيدة وأنا أجمع ذكرياتي عن طريق الكاميرا، أداعب ذاكرتي بين شهر وآخر، أرى حفل زفافي الذي غفوتُ فيه بفعل النبيذ المعتّق، أغازل نفسي يوم غالبني الحنين إلى بيروت وباريس، أجلس في مقهى (الأكسبريس) مع (عش الغراب) أرى النساء في شارع الحمرا وهن يغادرن نصف ثيابهن، ثم تأخذني الاير فرانس إلى برج إيفل، أبكي هناك على أطلال بغداد التي كانت مدينة حسناء ذات يوم، أمشي في شوارع ((المونمارتر والشانزليزيه والحيّ اللاتيني)) أقول لنفسي: كم أنت سعيد أيها الحمار الجميل، أنام على رصيف (السان جيرمان) وأصحو على ضحكة مومس في البيغال حطّمني فخذها المائل نحو الجنوب، تأخذني معها إلى أين؟ لا أدري، ليس هذا هو المهم مادامت الكاميرا مازالت تتأرجح على صدري وتمشي معي ترسم أسراري وخفايا قلبي (الولهان) بالعجائب وهي تمتد على طول (السان دونيه) بعد أن غادرتُ بيت المومس فجر الخميس التاسع من شباط وأنا أبكي من قسوة البرد النازل على مسامات جلدي.. لا شيء معي غير سؤال يسبقني أينما وليّت وجهي: حلم هذا، أم تراني في شوارع باريس حقاً؟

هي أربعمائة صورة فوتوغراف، أسود وأبيض، كل ما أملكه من كنوز الدنيا، أحدّق في الزورق الخشبي الذي عبرتُ فيه من العشار صوب (التنّومة) أقلب أرشيف العمر نحو الشمال، فأرى (فيوليتا) التي جرجرتني من تيريستا إلى فينسيا إلى ميلانو إلى روما مثل كلب مدلل، حتى أنها اشترت لي قلادة من ذهب طوقتني بها لئلا أهرب منها، هي التي قالت: من أي بلاد أتيت أيها الكلب الجائع؟ أنبحُ في حضرتها وأهزّ ذيلي تحت أوامرها في أي وقت تشاء، ما قلت لها (كلا) أبداً، وهل يتجرأ الكلب على رفض نعمة جاءت هبة من أعالي السماء؟ تبرأتُ من العفّة والحياء ومن بقية ما علّمني أبي من وصايا ودروس، بينما تتراكم الصور في جِراب العمر، تزداد بعد كل رحلة إلى بودابست وبحيرة بيلاتون، بوخارست وكونستانسا، حتى مدريد التي طردتني ورمتني إلى برشلونة، خوف أن يجتاح العرب أرض الإسبان بعد مئات السنين من الحرية ومصارعة الثيران، كانت برشلونة ترقص الفلامنكو في آخر الليل، والصور ملأت حقائبي وجيوبي ومذكراتي، حتى أوشكت أن تغرقني، لكن شيئاً (فيها) أرعبني على حين غفلة، كيف لم أنتبه أبداً إلى ملامح الرجل الذي احتل مئات الصور؟ هذا العمر الذي تمرّغ في طين الفرات ومضى إلى غرين النيل، ثم هاجر صوب الدانوب وصار يذرف الدموع فوق مياه السين، والذي مسّه بحر الأدرياتيك بالسحر والجنون حتى وقع صريع الملذّات قرب طنجة على أمواج الأبيض المتوسط، كيف جاء معي رجل لا أعرفه ونطّ هكذا كما السنجاب إلى أرشيف حياتي وصار ينبش في أوراقي ويدخل في عروق الصور التي هي كل ما ملكته طوال عشر سنوات من السفر ومطاردات المتعة في كل شبر من أرض

الله، قطارات تغنّي ونعزف الغيتار في ممراتها الفقيرة، بواخر عملاقة تسل الصحون في مطابخها ثمن النوم والطعام على سطوحها الباردة، طائرات تقطع المسافات في لمح البصر بين خراب وازدهار، حافلات أطول من صبرنا عليها تأخذنا بين الغابات والجبال ونحن نرقص من فرط السرعة، فكيف حطّ هذا الرجل العنيد في شعاب هذه الصور التي لا أحد فيها غير النساء والمدن التي رأيت؟ من أين له دخول القاهرة حتى يطاردني نحو خوفو وخفرع؟ كيف تمكن من بارات لندن ومتى رافقني إلى بيت فوزي كريم ونام معي هناك على فراش من الريش؟ أصابني هلع من الرجل الذي احتل حياتي على غفلة من وساوسي وحماقاتي، وحين أفرش الصور على أرض الغرفة عساني أعثر على واحدة لا وجود له فيها، إنها أربعمائة صورة أبيض وأسود، حتى أنا نفسي لم أظهر في بعضها، بل أخذتها مرة لصديقي سلمان داود محمد وهو يرمي يمين الطلاق على زوجته أمام القاضي، ومرة للمطر النازل في الاسكندرية، ومرة كنت أحوم حول امرأة من (تاهيتي) قالت إنها تتمنّى الموت تحت وابل من الحالوب والمطر، وثالثة لحمار وحشي في حديقة (براغ) ثم تلك الصورة المعجزة التي التقطتها لرجل رمى بنفسه إلى الموت من أعلى منارة في (كوبا) وهو يهتف بسقوط حاكم البلاد، مع خمس صور غيرها لم أكن داخل مستطيلاتها البيض، بينما الرجل الذي زرع الخوف بي تسلّل إليها جميعها، فهاهو يخطو في المحكمة الشرعية خلف صديقي سلمان وزوجته، كما أنه يمشي تحت نثارات المطر الذي انهمر في الاسكندرية، بل رأيته خلف الحمار الوحشي وهو يوشك أن يمتطيه في حديقة الحيوان، وأذهلني تماماً حين رأيته يرفع رأسه حتى يرى سقوط

الرجل الذي اعترض على نظام كوبا، لم أتمكن من تفسير الأمر، هذه ليست من المصادفات في شيء، لو أنه ظهر معي في بغداد أو البصرة أو العمارة أو نينوى وحتى كربلاء أو مقابر النجف، لقلت إننا من بلد واحد وليس هذا بغريب، بل وحتى لو جاء معي إلى بيروت أو عمّان أو القاهرة لن أقول بأنها واحدة من المعجزات، أما أن يتسرّب كما الهواء إلى قصبات الدار البيضاء ونابولي ولشبونة ومارسيليا، فهذا هو المستحيل، رميت نفسي على فراشي، أرحم جسدي من السكاكين التي راحت تطعن في لحمي طوال النهار، لم أتمكن من النوم، خرجتُ إلى صديق أعرف أنه يحتسي الخمرة حتى منتصف الليل، أخذت معي كمية من الصور، ربما يعرف هذا الصديق شيئاً عن الرجل المسكون بين بياضها وسوادها، أطرق بهدوء على باب البيت، يفتحها دون دهشة، كأنه على موعد معي، ملأ كأسي وهو يسألني: لا يبدو أنك في صحة جيّدة، ماذا جرى يا صديقي؟ فقلت له: أريدك أن ترى هذه الصور، راح ينظر إليها واحدة بعد أخرى، بل أطال النظر وهو يبتسم: يا لها من أيام، لا أحد منّا رأى ما رأيت، وارشو، قبرص، استانبول، مامايا، دمشق، أثينا، هل تراك رأيت العالم كله؟ قلت له وأنا أضع سبابتي على رأس الرجل الذي زاحمني وطاردني في كل شبر من الدنيا: هل تعرفه؟ قال: من؟ قلت: هذا الرجل الذي تراه معي؟ انظر إليه بقوة، ألا تعرفه؟ عاد يحدّق إلى الصور واحدة بعد أخرى مثل صياد يبحث عن فريسته، أطال النظر بيني وبينها، ثم قال: أي رجل تعني؟ أنت وحدك من أراه في البارات بصحبة النساء والليالي الملاح. عدتُ ثانية بشيء من الغضب أقول وأنا أشير إلى الرجل الذي يجاورني في النمسا أو يلتصق بي في جبهة القتال أو يقف ورائي في

محطة القطار أو ينام معي في بيت فوزي كريم أو يغازل النساء مثلي تحت سماء كوبنهاجن أو يركب البغال في جبال أربيل والذي يظهر في الموانئ أو المطارات على مقربة من ثيابي وحقيبتي، رحت أصرخ دون وعي مني: هذا الرجل، هنا، وهنا، وهناك، ألا تراه؟ هل أعماك العرق الزحلاوي أم تراك تسخر مني؟ فتح باب بيته كمن يطردني، طبطب على ظهري بشيء من الحنان والخوف، ثم قال: أرجوك أن تزورني في الصباح ربما أرى تحت الشمس الرجل الذي تحكي عنه.

مشيتُ الشارع الذي يربط بيتي شمالاً مع بيت صديقي جنوباً، كان المطر قد انهمر بقوة، لم ينزل هكذا في بغداد منذ سنين، إنه كما الأمواج، ينهمر على رأسي، تماماً كما حدث في التاسع من شباط أيام خرجتُ من بيت المومس في "السان دونيه" ودون أن أدري لماذا، رحت أبكي كما بكيتُ هناك تحت سماء باريس، أبكي مثل طفل تائه بعيد عن أُمه وأبيه، لا فرق بين بكاء هنا وبكاء هناك غير هذا الخراب الذي حلّ بي وأنا أخرج من بيت صديقي، لا شيء معي غير سؤال واحد يسبقني أينما وليت وجهي في بغداد: حلمٌ مرعب ما أنا فيه، أم تراني في شوارع بغداد فعلاً؟!

عمّان ١٧/١٠/٢٠٠٢

مح عليه القول "إذا بعنا توابيت فما من أحد سيموت".. وقد طرده
. انع التوابيت فعلاً بعد عشرة أيام لم يمت فيها أحد، مع أن بغداد كانت
شوى على نار هادئة ليس ثمة من يعلم بمصيرها!

وبرغم النحس الذي يطارد ناظم زعرور، تمكن أن يعمل اسكافياً في
ارع الرشيد ومهرجاً في سيرك بلغاري وخبازاً في محطة القطار ونادلاً
في أحد المواخير، لكنه لم يقطع سوى خمسة أيام أو أسبوع في أيما عمل
.. يطردونه في مساء مغبر أو في ظهيرة حارقة.

وليس غريباً أن يطلبونه لكتابة تقرير يومي عن حالة السوق وما
.له "الشعب" عن حكومته، فهو محض عمل آخر حتى يتمكن من
البقاء حياً، لكنه رأى نفسه على الرصيف ثانية بعد أن تكرر كلامه في
كل تقرير يكتبه إليهم: الناس بخير وليس من شيء غريب يحدث.

أخبروه أن لا حاجة بهم إليه مادام الناس بخير وليس من شيء
غريب يحدث وأعطوه أجرته التي تأكد بعدها أن أشياء غريبة تحدث وأن
الناس ليسوا بخير كما كان يرى أو يظن، إذ من غير المعقول أنه تسلّم
من أسبوعين من كتابة تقرير مكرر ما كان قد تسلّمه طوال شهور في
تلك المهن العجفاء المهينة!

أراد العودة إليهم، وكتابة تقرير عن السوق وألاعيب التجار وما يقال خفيه عن الحكومة، إذا بهم يرمونه وراء الشمس في جب أكثر عتمة من القبور:

ـ ولماذا لم تكتب كل هذا أيها الحقير؟

يوم أخرجوه من الجب، تأكد له ـ بالدليل النهائي القاطع ـ أن أشياء غريبة تحدث وأن الناس ليسوا بخير.

* *

اشتغل سماكاً على شاطئ نهر الفرات، فما اصطاد سوى أشنات وأحذية وطحالب، وعمل سائق أجرة على طريق بغداد ـ الصويرة، وكأن الناس لم تعد تغادر البيوت، فما من أحد يذهب صوب العاصمة وما من أحد يرجع نحو أهله في الصويرة، وحينما اشتغل "خياط فرفوري" لم ينكسر أيّ صحن ولا قدح طوال شهرين في محلته العجوز، بل عمل في بيع الخمور، إذا بأعتى السكارى يكف عن إدمانه ويمضي إلى المساجد للصلاة على سيّد المرسلين!

غلبه النحس والتصق به، حتى أنه عمل مؤذناً في جامع باب الطوب إذا بالمنارة تسقط بضربة صاروخ طائش جاء سهواً من وراء معسكرات التدريب وظنّ الناس أن ما جرى ليس غير إشارة إلى يوم القيامة، لهذا بات أهل المحلة يرتابون بأمره، إذ من غير المعقول أن يفشل هكذا في مهنة يستجير بها من الجوع، فلا صالون الحلاقة ولا بيع المفروشات ولا جمع الفضلات ولا كنس الشوارع ولا استنساخ الوثائق ولا تسخين البطاطا وبيع الفلافل ولا استئجاره شيّالاً في الزقاق ولا تزييت السيارات ولا بيع بطاقات اليانصيب ولا تشحيم ماكينات

الم. ..املة والرش إلاّ وجربها وتعلّمها وأتقنها فعلاً، لكن النحس الذي ..شي معه والذي تغلغل في خطواته وثيابه معاً يرفض أن يعطيه فرصة النجاح في أيما عمل إلاّ وانقلب عليه تماماً!

ولم يعد أمام ناظم زعرور غير اختيار موت سعيد وجميل وخاطف، وما دام منحوساً إلى هذا الحد، لابد أن الموت سيأتي بأسرع مما يتمنى، ليست سوى جرعة من سم الفئران أو غطسة عميقة في نهر دجلة وينتهي كل شيء، وإذا ما حصل على مسدس فهذا أهون وأسرع درب إلى نهاية مضمونة ومؤكدة، رصاصة واحدة في قمة الرأس تقتله وتقتل النحس الذي عاشره طوال حياته، وإن لم يعثر على ذاك المسدس فما أسهل أن يصنع أنشوطة من حبل الغسيل، سوف يعلّقها في سقف الغرفة ويضع كرسياً مكسوراً يتداعى تحته، يقطع أوجاعه ويخنق قصباته ويمضي به إلى عالم بعيد عن الدنيا وما فيها.

عندها فكر ناظم زعرور أن يحقق لنفسه متعة ما قبل أن يغادر الحياة، كما يحدث في العالم كله، فالمحكوم بالإعدام له الحق في رجاء واحد ورغبة أخيرة حتى تطمئن الروح قبل وداعها، جاءت أمام عينيه عشرات اللذائذ والمتع التي طالما تمنّى لو حقق واحدة منها، أن يحتسي عرقاً دمشقياً مع حفنة مزات محترمة، وأن يصغي في الوقت نفسه إلى صباح فخري مع يا مال الشام والحلبيات والقدود، أو يمضي إلى منزل "حسنة ملص" الشهير ويسهر معها أو مع إحدى "بناتها" الغجريات حتى الصباح كما يفعل رجال المحلة منذ مئات الليالي، أو يجلس عند غرين النهر يتأمل النجوم ويشرب الخمرة ويصغي إلى نقيق الضفادع حتى تحين ساعة النهاية.

وانتهى إلى خيار القدود والحلبيات، أن يحتسي العرق الدمشقي ويسمع تنهدات ورجرجات صباح فخري ويغني معه ثم يمضي بعدها إلى أنشوطته وينهي حياته دون شاهد عليه سوى النحس الذي سيغادره مرغماً.

أخرج الدنانير السبعة التي تمكن أن يحتفظ بها تحت كسرة من حجارة البيت للأيام السود، فلا حاجة إليها بعد اليوم، اشترى قنينة عرق من دكان "بابا زلّوم" طالما تمنّى أن يشتريها ويرى ما تفعله الخمرة في العروق، ذاك هو عرق الأغنياء فعلاً، وعند العاشرة ليلاً تمكن من أن يأتي بالحمص واللبنة والخس والزيتون والبرتقال مع جبس مالح وفستق عبيد وكبة حلب وبطيخة أكبر حجماً من رأسه الصغير، ماء مثلج وعلبة سجائر مارلبورو، أول مرة يراها بين أصابعه، سجائر الأغنياء التي تملأ إعلانات الشوارع والتلفزيون، وبعد أول رشفة من العرق الدمشقي الفاخر، أحسّ بنشوة غمرته كما السحر وصباح فخري يشارك في نشوته ويغني له وحده "نحن سود العيون" إذا به يردّ عليه وهو يوشك أن يرقص:

ـ شفته مرة في داره حلّ أزراره، هلو ياب أبو نوري الوردة.

رفع كأسه في صحة الطرب الأصيل، راحت علينا أيام الطرب الصحيح وكدنا ننساها يا ناظم زعرور، مدّ سبابته وإبهامه، التقط حبة زيتون كبيرة، انبعجت بين أسنانه، ورمت عصيرها على مسامات فمه التي لم تذق طعماً مقدساً كهذا، هذا طعام الأغنياء حقاً.

راح يكرر "يا سلام" مع اللبنة والحمص و"ألف سلام" مع البلاقلاء وأشياف البطيخ وملوحة الجبس، سرب حمام أبيض وباخرة محشوة بنساء

مسناوات، أجساد بضّة طرية لم يرها حتى في أحلامه النزقة، رشفة كأس ملعم النعناع يتسرب إلى مساماته وشعاب جلده، يشع منه عطر التفاح اللمون والفرح:

- في صحة ناظم زعرور، أنا ملك الملوك وشاهنشاه العالم وآخر ناپليون بونابرت على أرض النهرين..

والباخرة تجري في دمه، بينما النساء يتعرين مع الخمرة ومذاقها الدمشقي اللاّذع العجيب.

- الحياة ينبغي أن تكون هكذا كل يوم يا ابن زعرور..

ثم يرمي في جوفه قطعة من شيف البطيخ، وزيتونة، وملعقة من الحمص، كأنه يستعد لمعركة أخرى مع العرق الذي كاد يسقطه أرضاً:

- الموت لا يناسب أمثالك يا ناظم، ماذا تراك رأيتَ حتى تقتل نفسك يا مسكين؟

أوشك أن يصحو من سكرته وهو يفكر في النحس الذي ما فارقه أبداً. لكنه أسرع نحو خمرته وكبّ الكأس كلها، ثم راح يرقص ويغني ويطقطق أصابعه مع عندليبه الذي يحب، راح صوته يملأ الغرفة ويمضي منها إلى فضاء أبعد:

- أنا وحبيبي في جنينه والورد خيّم علينا.. يا سلام عليك يا زعرور، أين أخفيت هذه المواهب أيها المنحوس؟

وبعد ساعة من الوجد رأى نصف القنينة فارغاً والليل ما يزال في مرحلة القطار، فجأة تذكر أن لا أصدقاء له، وأنه لم يقرب الخمرة طوال حياته برغم أنه اشتغل في ماخور ليلي وعمل بائعاً في مخزن الخمور، أيامه دون معنى ولياليه في أسوأ ما تكون عليه الكآبة، فما الفرق بينه وبين أية جثة في طريقها إلى ظلمة القبر؟!

جرع كأسه دفعة واحدة لئلا يتذكر ما كان عليه من بؤس ونحس وخسائر، فهذه ليلة من العمر ينبغي الحفاظ عليها في جعبة الذاكرة وحقيبة الذكريات، راح يسرح مع المواويل ويشرب الخمرة في صحة المليحة وهي في خمارها الأسود، يتساءل مع نفسه عما فعلته تلك الحسناء بذاك الناسك المتعبّد بعد أن شمّر للصلاة ثيابه، لماذا وقفت له بباب المسجد؟ وكم أصابه الفزع بعد منتصف الليل حين انتهت قنينة الخمر، وكان قد أجهز تماماً عليها وعلى اللبنة والخس والزيتون والحمص والبرتقال والجبس وأشياف البطيخة وفستق العبيد، ولم يبق من شيء سوى الكبة الحلبية وثلاث سجائر مبلّلة بالماء المثلج الذي انسكب عليها وهو في أقصى حالات السكر.

سقط نائماً على أرض الغرفة دونما رغبة في رصاصة أو أنشوطة تنهي حياته الرخيصة، لم يعد في ذاكرته أي شيء من سم الفئران أو الغطس عميقاً في نهر دجلة، نام كما الموتى حتى جاءته الشمس عند الظهيرة وأيقظته من نشوة لم يعشها ولا مرة واحدة في حياته كلها.

* *

في وقت واحد، جاءه بائع الخمور وصانع التوابيت، اعتذر منه "بابا زلّوم" عن كونه أخطأ ليلة أمس وأعطاه قنينة ليمون بدلاً من العرق الدمشقي وأعاد إليه الدنانير الثلاثة متأسفاً مرة أخرى عن أغبى خطأ جرى في مهنته.

أما صانع التوابيت فأخبره أنه بأمس الحاجة إليه، ذلك أن الموتى صاروا أكثر مما يحتمل العقل، وإذا ما عمل معه فربما يخفّ طابور الموت الذي صار يملأ المقابر كلها.

وما إن عاد ناظم زعرور إلى صنع التوابيت حتى تراكمت الجثث عند أبواب المساجد والحسينيات وصار الموت هو الزائر الذي لا يكف عن طرق الأبواب جنوباً وشمالاً وذعراً لا حدود له!

وقبل أن يضحك ناظم زعرور على خيبته مع الموت، وعلى كل ما مرّ في حياته الموحشة الكئيبة، راح إلى "بابا زلّوم" وثمة دمعة توشك أن تسقط في الطريق، وقف على عتبة الدكان وهو يقول:

- أريد قنينة ليمون، من الصنف نفسه رجاءً.

عمّان ٢٠٠٤/٥/١١

هو الذي بكى!

عجيب، إنه هو نفسه، من أراه أينما ولّيت وجهي، في أي عزاء وتحت أية بلوى، لابد أن يكون هناك بين البكّائين، أنظر إلى عينيه تذرفان الدمع سخياً كما لو أنه من أهل هذا الميت أو من سلالة ذاك المنكوب!

درت حول شعاب المدينة كلها، ما تركت بيتاً ولا زاوية ولا زقاقاً ولا محلة ولا مقهى إلاّ ومضيت إليها، كنت ساعياً للبريد أعرف بغداد بأسرارها وخفاياها وطباع أولادها، وما فارقتني أفراحها ولا أحزانها منذ دومة من السنين، ولم يكن من شيء أكثر عجباً - فيما رأيت - سوى هذا الرجل الذي أراه عند كل كارثة وفي أي عراك، ما أن يشمّ رائحة الدم حتى تراه أول الراكضين إلى هناك!

امرأة ذبحها زوجها بين جمهرة من الناس، سال دمها قرب رصيف المقهى، إذا بي أراه أول من ينوح عليها ويندب حظ النساء قرب جثتها المطعونة بخنجرين.. وبعد أيام (طار) أحدهم في شارع الربيع بضربة "تويوتا" أخطأ سائقها، إذا به يشطر أحد العابرين إلى نصفين حال أن سقط - بعد طيرانه - فوق أسلاك المرور.. ولم ينقطع من الوقت سوى دقيقة إذا بي أرى هذا (البكّاء) وهو يلطم خدّيه جزعاً ويسابق الناس إلى النحيب على شبابه المهدور!

كيف يجيء هذا الشخص الغريب بهذه السرعة ويحطّ مثل طائر ينعق دون حساب، على بشر لا يعرف أيّ واحد منهم؟ رأيته في الكاظمية يبكي ويولول ويهز رأسه ويقرأ سورة الفاتحة على طفل في الخامسة مات سهواً تحت زحام الزائرين في ليلة عاشوراء.. ثم جلس إلى جانبي ذات مرة وأنا أتحسّر على تلميذة ألقت بنفسها من أعلى منزلها وما عرفنا سرّ موتها أبداً.. كنت أرى هذا (الباكي) في كل جزء أمضي إليه، شرط أن يكون ثمة (موت) أو (دم) في الطريق! وفي كل مرة أقرأ أو أسمع فيها رسالة موت في بغداد، يكون (هو) أسبق مني في اكتشاف المكان، كما هو أسبق حتى من أبناء الميت في البكاء والنحيب واللهاث على أي جثة ستمضي إلى مصيرها!

* *

أخرج كل يوم في الثامنة صباحاً، أتسلّم حصتي وحقيبتي، رسالة إلى (باب الشيخ) تأخذني إلى بيت قرب سينما الفردوس، ثم أجلس في مقهى (زعرور) أشرب الشاي مجاناً، أضحك مع صاحبها على حال الدنيا، وبرغم أن لا رسائل تأتي إليه وليس من أحد غائب أو بعيد، لكن (زعرور) يسألني كل صباح عما إذا كان له من نصيب في حقيبة البريد؟

لا أصدقاء لي سوى زعرور، وليس من أحد يسامرني على كأس اللذة غير هذا المسكين الذي ينام ويصحو على (تخت) خشبي داخل تلك المقهى العجوز، وفي اليوم الذي ماتت فيه زوجته ـ كان ذلك قبل عامين على ما أتذكر ـ كنا قد شعرنا، عزوز وأنا، بشخص يبكي أكثر منا، هو نفسه الذي يأتي في عزاءات الناس وينخرط في البكاء نيابة عمّن أتعبه النحيب منهم!

رفعتُ حقيبتي ومشيت إلى أزقة الرصافة وشعابها، رسائل المهاجرين تأخذ نصف وقتي، مازالت أحزانها تزداد بين السطور وأختام المسافات، أرى ملامح الناس بعد كل رسالة، تنفك عن حسرات لا أفهم معناها، وما كان من حقي قراءة ما يأتي فيها من مسرّات وأوجاع وكربات، فما أنا غير وسيط لهذا الأسى.

أعود منهكاً، أجلس كالعادة في مقهى زعرور، أحكي له عما رأيت في (سوق حمادة) وزقاق (الطاطران) عن جولة أخطو فيها على زمني وأحسر بعدها حفنة من بقايا عمري وأنا أمشي بين جامع (الحيدرخانة) وشارع الرشيد، حتى الرسائل سوف يعرف (زعرور) كم كان عددها وماذا حمل أصحابها وهم ينتظرون أخبار من رحلوا..

لكنني في تلك الظهيرة، لم أعثر على صاحبي زعرور، بل فوجئت بحشد كبير من أهل المحلة وهم على هيئة دائرة لم أستطع النفاذ منها حتى أرى، عندها سمعت صوتاً أعرفه ونحيباً تسلّل صوب جلدي أصابني بالقشعريرة والخوف.. إنه هو نفسه من أراه أينما ولّيت وجهي، حاضر في الفواجع والنكبات، أول من يأتي من الناس، عند أية بلوى، أو حين يشم رائحة (دم) مسفوح في الطرقات.. هو نفسه من أسمع صوته الآن!

تأكد لي أن زعرور قد فارق الحياة، لا صديق لي بعد هذا اليوم إذن وما من أحد أسامره على كأس لذتي بعد هذا المساء، رأيت نفسي دون إرادتي، أمشي صوب هذا الغريب الطاعن في متعة البكاء، مددت يدي إليه وأنا أتمنّى قتله، نظرت إلى عينيه بكل ما أحمل من غضب وخسارة، صرخت به:

ـ لماذا أراك في كل موت يحلّ بهذه المدينة؟ من أين جئت وماذا تريد؟ من أنت؟

قال وهو يضحك، تلك كانت أول مرة يضحك فيها على ما أظن:

ـ ولماذا أراك أنت أيضاً في كل عزاء وفي كل موت؟

كانت الرياح تهبّ من جهة الفرات، قلت له وقد رفعتُ يدي بهدوء:

ـ أنا ساعي بريد، تلك مهمتي، أن أعطي الناس بريدهم.

غطّت الرياح على غضبي، رأيته ينهض بقوة، راح يقترب من وجداني، بل يوشك أن يلتصق بي وأنا أسمعه يقول بحنجرة أرعبني رنينها:

ـ كل واحد منّا يا صاحبي له بريد ينتظر.

* *

بقيت في مكاني مرعوباً بعض الوقت، الغريب مضى إلى حيث لا أدري، الرياح تزداد هياجاً، وفجأة، رأيت حقيبة البريد مفتوحة بفعل هبوب الريح، حيث تطايرت رسائل المحبّين والمهاجرين، ومضيت صوب الشوارع والبيوت والمقاهي، وأنا مازلت قرب مقهى زعرور أسمع الصدى يكرر مرتين:

ـ كل واحد منا له بريد ينتظر، كل واحد منا له...

ولم أعثر ثانية (عليه)!

عمّان ٤ آذار ٢٠٠٢

إذا لم يتسع الجحيم للوافدين إليه، فما من مكان لهم غير البقاء في الأرض والانتقام من الأحياء.

* *

في اليوم الذي مات فيه "حسونة بلبع" مضى إلى الجحيم فوراً على ما اقترفه من أخطاء وجرائم وموبقات، لكنهم عند بوابة جهنم أخبروه أن لا مكان له في هذا الوقت بعد أن ازدحم الجحيم تماماً ولم يبق من الأمر فيه!

أخبره الحاجب أن جحيماً آخر سيفتح عما قريب يكفي النصف الثاني من رواد جهنم وأن اسمه (ليطمئن فعلاً) سيكون الأول، وحتى ذلك الوقت ما عليه سوى البقاء في كوكب الأرض في مكان يشبه الجحيم لئلا يخسر حصته في أوقات النار المحكوم بها سلفاً.

قال حسونة بلبع للسيد المقيم:

- أنا عشتُ حياتي كلها ما بين تونس والرباط، نصفها في المغرب ونصفها في مدينة باردو، وأرجو أن أبقى بينهما حتى افتتاح الجحيم الثاني.

أجابه الحاجب المقيم بهدوء يشبه الهمس:

ـ هذا ما كان قبل موتك يا ابن بلبع، وما كان قبل موتك لا شأن لنا به معذرة.

مرت قوافل من البشر بلباس أزرق وذيل رمادي، في طريقها الشائك نحو الجحيم، فما كان من حسونة بلبع غير أن يسأل المقيم:

ـ لماذا أنا وحدي خارج هذا الطابور؟

قال الحاجب:

ـ هؤلاء في الجحيم منذ مئات السنين، وقد أعطيناهم ثلاث ساعات من الراحة وشمّ النسيم بعد إحساسهم بالذنب على ما اقترفوه من مثالب في الأرض.

أحس حسونة بالرعب يطوف حول رأسه وهو يسمع (مئات السنين) هو الذي ما ترك إثماً ولا خطيئة ولا جرماً ولا فاحشة إلاّ وكان أول من يتسابق نحوها ويفوز بذنوبها.

تساءل مذعوراً:

ـ كيف ينقضي الوقت هنا يا سيّدي المقيم؟ أعني ماذا يفعل هؤلاء البشر حتى يمر الزمان بسرعة؟

قال المقيم بصوت يأتي من وراء غيمة تسبح قربهما:

ـ الوقت هنا لا يمشي، وذاك هو الجحيم.

ـ ألا يُحرقون بالنار كما كنا نسمع؟

قال الحاجب وقد أحسّ بالضجر من سؤالات بلبع البلهاء:

ـ إنهم يحترقون من الداخل، هنا لا شيء سوى الصمت والفراغ وتكرار واجترار ما فات من ذكريات حتى تمحى بمرور السنوات.

ـ ألا يمكن رسم نهاية لهم بعد فترة من العذاب؟

أجابه المقيم بوجه جامد:

- نعم، بحسب كمية الذنوب ونوعها، هناك من يبقى ألف سنة وثمة من يبقى أكثر من ذلك.. الذنوب لا تتشابه، وكذلك العقاب.

قال حسونة وهو يوشك أن يسقط أرضاً:

- هذا يعني أنني سأكون مثلهم!

أشار الحاجب أن الحوار قد انتهى بعد أن قال:

- أنت مثلهم الآن يا ابن بلبع حتى افتتاح الجحيم التالي وقد جاءنا الآن اسم البلاد التي ستمضي إليها.

**

نزل حسونة بلبع إلى بغداد، فما من أرض أقرب شبهاً بالجحيم أكثر منها، مع أن السيّد المقيم كان قد اختار له غزة ورام الله ومكاناً غير معروف في جنوب أفريقيا لم تصل إليه شفرات الحضارة بعد، لكن ملائكة النار واستعلامات مولانا عزرائيل اقترحت بغداد في آخر مرحلة قبل نزوله الأرض.

في شارع السعدون سقطت قربه شظايا صاروخ، وقبل أن يتوارى خلف الجدران سمع أزيز الرصاص يسابق الرياح والغبار حتى امتلأ المكان برائحة البارود، ممزوجاً بروائح السمك المقتول في نهر دجلة.

لم يعرف إلى أين سيمضي، فهذه البلاد التي سمع الكثير عنها، صارت أقرب شبهاً بساحة حرب، بل هي في الحرب تماماً، دخان يتصاعد من أعلى البنايات، والكلاب السائبة في حالة هجوم على فضلات ليس من طعام فيها سوى عظام المذبوحين في الشوارع، والمدينة برمتها فارغة إلا من الرعب الذي يدق أبواب بيوتها وخرائبها، بينما القطط تموء من

الجـوع والذل لا تدري أي شيء عـمـا يجـري وراء المنازل التـي طال أوان غلقهـا ولم تعد تفتح أي باب لها حتى تستجير بها من الذعر الذي تراه في كل شبر من بغداد.

حسونة بلبع يخفي رأسه بين يديه، كما لو أن الرصاص إذا ما جاءه سهواً لن يتمكن من بقية لحمه، ثم تذكر أنه "ميت" وأن الروح قد خرجت من هذا الجسد المرعوب وأنه لن يموت ثانية مهما جرى.

وبرغم أنه يعلم علم اليقين بأنه خرج من دائرة الأحياء، إلاّ أن الخوف من الرصاص الطائش أرعبه تماماً، حدّ أنه تبوّل في ثيابه وهو يختفي بين الحيطان العالية، ذلك أن وجع الشظايا وقروحها إذا ما أصابته، فمن الصعب أن يمضي إلى أية مستشفى، وليس من أحد سيعمل على رمي طوق النجاة إليه.

رأى رجلاً يسرق سيارة متسيوبوشي، بهدوء ودون أي خوف، أخذها وطار بها صوب الشمال وهو يضحك من شوارع بغداد التي غدت دون حماية وبلا رقيب!

لم يتمكن حسونة بلبع من النوم ليلاً ومن الرعب نهاراً على مدى سبعة أيام، الجثث المذبوحة وهياج الكلاب وسعير الصواريخ جعل التسميات في غير مكانها، فهذا جحيم من نوع آخر غير جحيم القيامة، أشلاء مرمية على الجسور وفي الشوارع الخلفية وفوق أكوام النفايات، لا أحد يسأل عنها أو يقترب من روائحها العفنة التي تزكم الرؤوس، نهب البيوت والمؤسسات والوزارات مجرد لهو ولعب وقضاء وقت، بينما الناس تخرج خفية بين ساعة وساعة تعثر على شيء يؤكل، ثم ترجع إلى مأواها بِخفُيّ حنين، حتى صار أكل القطط ولحوم الحمير أمراً لا مفر منه!

اقترب حسونة بلبع من مطعم على نهر دجلة، فارغ ليس من أحد أو شيء فيه سوى يافطة من قماش أخضر ملوث مكتوب عليها بالحرف الأول في "مطعم السلام".. رأى رجلاً قصيراً في حالة يرثى لها يجلس على خشبة مقطوعة من جدار كان ذات يوم - على ما يبدو - ديكوراً معمارياً، نظر إليه القصير بكثير من الريبة والشك وهو يسأله:

- من أين أنتَ يا رجل؟ كيف وصلتَ إلى هنا؟ إذا كنت تريد أن تسرقني فأنا لا أملك أيّ شيء.

لم يقل حسونة بلبع أي شيء، غير أنه يبحث عن مكان آمن حتى تهدأ مأساة هذا البلد المسكين، إذا به يسمع الرجل القصير يكرر:

- ستطول الفواجع وتمتد النكبات، ستطول المأساة أكثر مما تظن وما علينا سوى انتظار ساعتنا.

في لمحة خاطفة من زمن غامض، انفجر صاروخ على بُعد أمتار منهما وحطّم كل ما تبقى من زجاج لم يكسر بعد، وكاد الرجل القصير أن يموت هلعاً وهو يقول:

- سترك يا رب العباد، سترك يا ربي العظيم، الجحيم كان أفضل مما أنا فيه الآن.

صعق حسونة بلبع وهو يسمع ما قاله القصير، أطال النظر إليه قبل أن يسأله:

- ماذا تعني بكلامك العجيب هذا؟

أجاب القصير وقد انفجر صاروخ آخر على بُعد أمتار منهما:

- لن تصدقني أبداً، ولن يصدقني أحد في الكون كله، أنا خارج المعقول أيها المحترم.

عندها قال حسونة بلبع ودون أن ينتظر بقية أسرار القصير:

ـ أنت رجلٌ ميت، أنا أعرف ذلك، ذهبتَ إلى الجحيم فما وجدتَ مكاناً هناك بين الموتى، ولهذا رموك إلى بغداد حتى افتتاح الجحيم التالي..

نهض الرجل القصير، كاد رأسه أن يتورم فعلاً من المفاجأة، هذا شيء خارج المعجزة، شيء لا يعقل أبداً، أن يلتقي بميت آخر مثله، إنها محض لعبة كونية يلعبها (أحدهم) على غفلة منهما:

ـ منذ متى وأنتَ هنا في بغداد؟ القصير هو الذي كان يسأل.

ـ قبل أسبوع واحد.

ردّ القصير:

ـ أنا جئتها منذ يومين، ومنذ يومين وأنا هنا في مطعم السلام لم أتحرك من مكاني هذا.

ـ ولماذا أنت خائف هكذا وأنت ميت؟!

قال القصير وهو يوشك أن يضحك؟

ـ ولماذا أنت خائف أيضاً وأنت تعلم بأنك ميت؟!

* *

ليلٌ دامس تنساب ظلمته على تموجات النهر، ثمة أشباح تطمس في دجلة وأشباح تحمل السلاح، المدينة مسكونة بأقدارها ومصيرها، لا أصوات فيها غير دوي القنابل، دبابات ومجنزرات ترمي جمراتها على كل شيء يتحرك، وحسونة بلبع وصاحبه القصير في حالة صمت قاتل خوفاً من أشباح النهر التي تخرج من باطنه وهي تحمل أسلحة خفيفة في طريقها إلى حزام النار الذي أشعلته الطائرات في حلكة الليل.. الرجل

... يشبك أصابعه على رأسه وينظر إلى حسونة الذي أرعبه النهر ... بالعشرات من الرجال السود الملثمين، ماذا لو أنهم دخلوا ... السلام، ماذا تراهم يفعلون به وبهذا الكائن الخائف الذي يوشك أن ... أصابع يديه هلعاً وذعراً؟

... في كتاب الجحيم، إن الموتى ينتقمون من الأحياء إذا لم يعثروا ... كان لهم يوم الحساب، وهاهم الأحياء من سيأتي لذبح الموتى في ... السلام.. كيف تنقلب الحسابات هكذا في مدينة مثل بغداد؟ حسونة ... يفكر أن النهاية غير معقولة ولم يخبره السيّد المقيم بهذا العقاب ... وليس أمامه الآن غير أن يموت مرتين عكس بقية خلق الله!

... فجأة، كما يحدث عادة في أساطير القرون التي ما كتبوها أبداً، ... تناقلها الأحفاد عن الأجداد، ظهر مارد أطول من سقف المطعم ومدّ ... نحوهما وهو يقول بصوت غريب يأتي على طبقات من همس وصراخ ... وخشونة:

- جاء دوركما اليوم للذهاب إلى جهنم، لقد تمّ افتتاح الجحيم ... تعالا معي.

... صوت أمواج وموسيقى ورعد وبرق ونيازك ينبثق من تحت الأرض ... من وراء النهر، صوت عجائبي لا يمكن وصفه مهما حاول البشر، يلتصق ... بمسامات الجلد ويخترق العظام ويملأ الجسد من قمة الرأس حتى ... إبهام في القدمين، صوت مخيف، لكنه يشبه الغناء، صوت أبعد من ... سقف أرضي، كاد الرجل القصير أن يبكي فرحاً، بينما نهض حسونة ... وراح دون وعي منه ينشد شيئاً جاء على لسانه من قوة خارجة عن ... الجسد:

ـ آه لو أنني في قرية لا أرى فيها غير العصافير والغيوم والماء.

قال المارد:

ـ ستذهب فعلاً يا حسونة بلبع إلى قرية طيبة هادئة حتى يتم تأهيلك للحياة في الجحيم الثاني.

ثم خطف ضوء باهر عند مطعم السلام غطّى على حلكة الليل وصار من الممكن رؤية النهر، نهر دجلة، الذي يتموج بالدم ويمشي من الشمال إلى الجنوب بصحبة أشلاء صارت تتوزع في بطون السمك الجائع

مايس ٢٠٠٤

السيّد الغراب

إلى: موفق محمد "أبو خمرة".

كان يشرب الشاي في خمارة مزحومة بالسكارى، ثمة من يضحك منه (رجل في الخمسين ويشرب الشاي في حانة) ؟! لكنه لم يعبأ بما يقال عنه، كثيراً ما جاء الحانة واحتسى فيها الشاي، وصاحب الماخور يعرفه منذ زمان بعيد، أيام كان يخلط البيرة بالعرق الزحلاوي أو يمزج المارتيني بالزنزانو ثم يأخذ كأساً من النبيذ حتى يتخلص من طعم الخمرة.

لا أحد في بغداد ولا في أي بقعة من الدنيا يسبقه في احتساء الخمور بأنواعها حتى أنه تعلّم كيف يصنع الخمرة في قبو منزله العتيق، يصبّ النبيذ في براميل صغيرة ويتركها عاماً أو عامين وربما ثلاثة أعوام حتى يتعتق النبيذ ويغدو طعمه أفضل من أي نوع يحتسيه في البارات بل وحتى في هوتيلات الدرجة الممتازة.

كان يشرب في الصباح وفي الظهيرة وعند المساء، ثم يبدأ جولته الكبرى بعد منتصف الليل، بحيث صارت رائحة الخمرة تمشي معه في الشوارع والممرات وشعاب الزقاق الذي يسكن فيه، حتى نسي الناس اسمه الأول بعد أن لقبّوه "أبو خمرة" وبات اسمه الثاني صفة لا يمكن خلعها عن "حميد حيران" الذي كان اسمه ذات يوم بعيد.

لم تغلبه الخمرة على أمره إلاّ مرة واحدة طوال حياته، يوم أن عاد ابنه الوحيد مثقوباً برصاصة في الرأس... ولم يسأل من أين جاءت الرصاصة ولا من أطلقها، فهو يعرف أن السؤال قد يأتي برصاص أكثر على رؤوس العائلة كلها!

في تلك الليلة، غلبته الخمرة وتمكنت من عروقه ولحمه ودمه وتسللت إلى كل جزء من النخاع.. احتساها بدون ماء وبلا طعام، ربما أراد الموت وهو يكرع الكؤوس تباعاً دون صديق ولا أنيس معه، لا أحد غير غراب يراه من خلف زجاج الحانة وهو يطير قرب أسلاك التلفون، جميل هو صوت الغراب وفيه نغمة من أسى ومرارة وحزن دفين، قال صاحب الحانة "أنت تقتل نفسك يا حميد".. هزّ رأسه وراح في إغماءة خاطفة، عاد بعدها إلى خمرته وهو يغني بصوت مكلوم:

ـ هذا مو إنصاف منك غيبتك هلكّد تطول..

ثم يذرف الدمع بخشوع عجيب على ولد مضى عن الحياة ولن يعود إليها وإليه، كرر صاحب الحانة: أنت تذبح نفسك يا حميد، ما هكذا تُشرب الخمرة يا رجل.

تلك كانت ليلة محسوبة بحساب، فقد رفع حميد حيران كأسه وهو يصرخ تحت سقف الخمارة:

ـ في صحة الكلاب.

لم يكن في الحانة غير أربعة من سكارى آخر الليل، كرر أحدهم ما قاله حميد وهو يهزّ رأسه كما الدراويش:

ـ أحسنتَ يا رجل، بارك الله فيك، في صحة الكلاب فهي أشرف منا جميعاً.

* *

في الثانية بعد منتصف الليل، انتصرت عليه الخمرة تماماً، ترنح في الطريق شرقاً وغرباً، إذا به أمام تمثال شاهق يناطح الغيوم، وقف أمامه أكثر من نصف ساعة، ثم فجأة راح يضحك، يضحك، ثم أحنى رأسه وتأرجح في مكانه مثل ريشة تسرح فيها الرياح وتمرح.

ألقى بتحية عسكرية للتمثال العالي الذي مدّ يده اليمنى كما يفعل أدولف هتلر، إذا بحميد حيران يصرخ، ربما كان يعوي، من يدري، ربما كان يبكي، ربما كان ينبح، وأظنه كان يزأر أو يخور، لكن بغداد راحت تكرر الصدى الذي يقول:

ـ لماذا قتلتَ ابني الوحيد يا سيادة الرئيس؟

يلتفت يميناً، يسمع شارع الزيتون يجأر بالصدى:

ـ قتلت ابني الوحيد يا سيادة الرئيس.

ويلتفت شمالاً، يصغي إلى بستان الزوراء وشجيراته اليابسة، تلك كانت أول مرة ينهق فيها البستان ويكرر الصدى:

ـ ابني الوحيد ياسيادة الرئيس.

ثم يسقط أرضاً وهو يسمع شخير دار العدالة قرب التمثال يصرخ مثله:

ـ لماذا...؟ ماذا..؟ قتلتم..؟ قتلت..؟ ابني..؟ ابنكم.. الوحيد.. يا سيادة.. سيادة.. الرئيس؟.. رئيس.. ئيس س س س؟؟

كان ذلك آخر يوم احتسى فيه الخمرة، منذ عشرين سنة مرت، والصدى ما يزال يحفر في رأسه، وينخر تلك الكلمات، التي من فرط لوعته، قالها، قبل أن تراه الشرطة وتأخذه فوراً إلى.. هناك.

* *

صاحب الحانة يعرفه منذ زمان بعيد، نظر إليه وقد أكلته اللوعة:

ـ حميد حيران؟ ماذا جرى لك يا رجل؟ من أين خرجت؟ أم تراني أتخيّل؟ هزّ رأسه كما لو أنه كان هنا منذ ساعتين؟

ـ أريد كوباً من الشاي بارك الله فيك.

عاد الغراب وهو يتهادى فوق أسلاك التلفون، صوت قبيح وشكل أقبح، غراب أسود يشبه السواد الذي عاش فيه عشرين سنة، يشرب الشاي بهدوء في الخمارة نفسها، بينما يضحك السكارى في زوايا الحانة من رجل تجاوز الخمسين وهو يحتسي الشاي في مكان مزحوم بالزحلاوي والبيرة والزنزانو والمارتيني وتوما وزعمط وكلين جولى وحداد الذهبي و... النبيذ المعتق!

حدق حميد حيران إلى السكارى، وأطال النظر فيما يحتسونه من الخمور، كان بدوره يضحك أيضاً وهو يرفع (استكان) الشاي أمامهم ويقول بصوت مذبوح:

ـ في صحة السيد الرئيس حفظه الله، ورعاه، وبارك في خطاه، وأحسن مثواه.

من خلف الزجاج كان الغراب يصغي إلى حميد حيران، غراب أسود كما الليل، فاحم السواد، ذو منقار مدبب يضرب أسلاك التلفون ويوشك أن يرقص وهو يسمع ما كان يقوله حميد.. رعاه، وبارك في خطاه..

ولا غرابة أنهم أخذوه ثانية، وهذه المرة، أحسنوا مثواه تماماً.

عمّان ٢٠٠٣/١١/١

خردة فروش[1]

لم أفهم تماماً ما يفعله أبي، فهو يأتي بين شهر وآخر بمركبة محشوة بأشياء لا أهمية لها ويسكبها دفعة واحدة في مخزن البيت الكبير ثم يجلس على الأرض ويبدأ في عزلها وتصنيفها بحسب النوع والحجم ومدى نسبة الصدأ العالق فيها، فهنا كومة ولاّعات ومفاتيح وعلب ومقصات ومفكات وأمشاط، وهناك قناني فارغة وباروكات شعر وأشرطة كاسيت ومكواة معطوبة وزجاج مكسور وفساتين عرس متهرئة.

وبين كومة وكومة، ينفث دخان سيجارته فرحاً بما يرى، كما لو أنه قرب شاطئ بحر وحوله مئات النساء الحسناوات، مع أن المخزن موبوء بالزواحف والحشرات وله رائحة جدّ غريبة ولا تفسير لها، تأتي من بقايا دهونات المطابخ وزيوت الماكنات وتفسخات الفئران التي تسرح وتمرح وتموت بين شعاب المخزن، لكنها برغم هذا تأتي ممزوجة بطعم الكنافة وعبق الزعتر والليمون والبرتقال.

أبي مثل أي شاهنشاه مخدوع، يدخل إلى عرشه بين تلك الخردوات

---

(١) خردة فروش : كلمة باللهجة العراقية ومن أصل تركي ، تعني الأشياء التي يستغني عنها أصحابها ، وفي مصر توازي كلمة روبابيكيا .

أسعد من أي طفل في الدنيا، يأخذ منه فرز وتصنيف (خردواته) ما بين خمسة أيام وتزيد، إذا به، وقبل أن يفرغ المخزن، يأتينا بمركبة ثانية يسكب ما فيها، ويمضي إلى تكرار عزل وتصنيف محتوياتها دون أن يجزع أو يتذمر، بل نراه أكثر ابتهاجاً وطرباً إذا ما غرق المخزن بتلك الخردوات وإذا ما صار الدخول إليه عسيراً حتى على أصغر أولاد البيت، وكم من مرة سمعته يغنيّ وهو يرى البيت مزحوماً ومخنوقاً بتلك المهملات التي لا يلتفت إليها أحد في الدنيا سواه!

سبق أن نسينا أبي ولم نفطن إليه وقد ربط النهار بالليل وهو داخل امبراطوريته المزدحمة بأقلام معوجة وساعات خربانة ونقود سقط زمانها وأوسمة ونياشين مات أصحابها، صحون وطناجر، بطانيات مخرومة وثياب ممزقة وإطارات مثقوبة ودبابيس وإبر وأسلاك ومسامير، آلة كاتبة سقطت حروف أبجديتها، مشابك وحقائب وصناديق عطور، براويز من خشب البلوط والسنديان، عيدان زخرفة ورؤساء جمهوريات وبرابيش ومنافض وخواتم وأحزمة بطون وأحذية مازالت تحمل رائحة المشائين بها، سكاكين مثلومة ومطارق ونظارات وملاعق مطعوجة وتليفونات سوداء مازالت تئن بأصوات العشاق، كؤوس ومكانس وأشياء لا أعرفها، بينها أدوية فات أوانها وبقايا عظام مسننة وكرامفون مازال يردد نصف "تعال سلم" وينشطر الصوت إلى نصفين بلا معنى!

أتعبني أبي، وأخجلني أمام أصحابي، ماذا يفعل أبوك بهذه الترهات الوسخة؟ أسكت، فما من جواب عندي، وفي كل مرة أسأله عما يفعل يكرر القول نفسه:

ـ ستفخر بي ذات يوم يا ولدي.

تحطّ الطيور على البيوت جميعها، إلاّ دارنا التي تشّع منها رائحة الزنك والنحاس والدهون، وأعترف بأنني عجزتُ عن تبرير أفعاله، أبي الذي لا يعبأ بما أقول، صار بيتنا محض حاوية كبيرة للزبالة والخردوات، فما من شيء في هذا العالم الشاسع الرهيب إلاّ وفات على بيتنا ذات يوم ومرّ على مخزن أبي، أصباغ بهت لونها وستائر لا تستر أي شيء من كثرة ثقوبها، صامولات بألف نوع وشبابيك وثريات مأكولة الرؤوس وشناشيل لم أعد أحنّ إليها.

وفي كل مرة تأتي بها مركبة الخردوات إلى دارنا أشعر بالغثيان والعار، وأرجو ألا يرانا أحد من الجيران لئلا يضحكوا ويستخفوا بنا، مع أن شيئاً من هذا لم يحصل أبداً، بل ساعدونا ذات مساء في إنزال الحمولة دون أيّ استياء منهم، وكان أبي كريماً جداً معهم إذا ما طلبوا شيئاً من "بضاعته" فمرة أعطاهم فانوساً ودلّة قهوة ومرة ثانية أهدى إليهم برميل نبيذ صغير وسلّة فواكه فضية اللّون (دون فواكه أو نبيذ طبعاً).. وهكذا غمرتني الراحة ولم أعد أتوجس من جيراني، لكن أبي أسرف في شغله بعد كل حرب تضاف إلى حروبنا، حدّ أنه، ودون رغبتنا، أخذ غرفة من غرف البيت وألصقها بمخزنه الذي صار يكبر سنة بعد أخرى، حتى كاد ينفجر إذا ما تهاوت الحيطان علينا، ولا أحد في البيت يعترض على جنونه.

أنا وحدي من يسأله دون خوف عما يفعل، ولم أكن حينها غير عشرة أعوام، فيأتي قوله هادئاً نقياً كما لو أنه يحكي من وراء ماء ينهمر:

- ستفخر بي ذات يوم.

* *

فجأة، بعد صياح الديك فجراً، مات أبي، هكذا رأيته آخر مرة وهو بين كنوزه التي لا تساوي شيئاً، مات بين حفنة خناجر وقلائد من نحاس، هناك في مخزنه وبعد آخر صيحة لديك الجيران، رأيته بين سيف وطاسة وطنافس، مات الرجل الذي أمضى نصف حياته في لجة الخردوات معتقلاً معها في الليل والنهار، ولم أفهم ما كان يفعله أبداً.

أغلقتُ باب مخزنه بنفسي، وظننتُ أننا سنأخذه إلى القبر دون ضجة وبلا معزّين، فما كان من أحد يعرفه أو يزوره أو يسأل عنه، لم يجلس في مقهى ولم يشرب الشاي إلاّ في بيته، أعني في مخزنه وهو يفرز أشيائه المثلومة والمطعوجة والمكسورة عن بعضها، وقد ينام بين دورق وتمثال وبوق ولا نعلم عما جرى إلاّ صباح اليوم التالي، رأيتُ مفتاح المخزن بين أصابعي، كما لو أنني أرى نهاية إنسان كان أبي ذات يوم!

في الطريق الترابي إلى المقبرة بعد أذان العصر، كرر مؤذن الجامع خبراً عن وفاة أبي، تلك كانت أول مرة نسمع فيها اسمه يتهادى في فضاء بعيد، إذا بي أمام حشد مهول من أهل زقاقنا ومن شيوخ المحلة التي تجاورنا، بل جاءنا المئات من عجائز ونساء وشبان وصبايا الشوارع التجارية التي تبعد عن دارنا بمسافة تجاوزت امتداد خيالي، رفعوا تابوت أبي فوق الرؤوس من شارع إلى شارع ومن حارة إلى أخرى مسافة لم أصدقها، تبادلوا بينهم رفع جثمانه وهم في حالة حزن وأسى عميق، كما لو أنهم عرفوه أكثر مني، ولم أصدق نفسي وما أرى من حفاوة صارت من نصيب أبي، حينها شعرتُ بالدموع تنهمر فرحاً على قميصي، فقد ظننت سهواً أن أبي محض رجل مهمل ولا أحد يهمه في شيء أن يبقى أو يموت، بل جاءني من يقول وهو يطبطب على كتفي:

ـ ليرحمه الله، كان أفضل منا جميعاً.

تمهّلوا قليلاً سادتي، ساعدوني على فهم ما كان عليه أبي، كاد قلبي يقفز فعلاً وراء جلدي وأنا أسمع إحداهن تبكي وتولول وتقول من خلف عباءتها السوداء المغبرة:

ـ لقد أعاد إلينا حياتنا وأنقذنا من الجوع.

قالت أخرى وهي تلطم رأسها على فراق أبي:

ـ إنه إنسان لن يتكرر، فقد أرجع إلينا كل ما خسرناه. قلتُ تمهّلن يا سيداتي أنتن أيضاً، ساعدنني على فهم ما أنا فيه الآن، سمعتُ الكثير وأنا أمسك بين أصابعي مفتاح مخزنه، رعشة في جسدي وما يشبه الخوف يعتريني وأنا أصغي إلى الناس في جنازة مهيبة وهي تقول عن أبي:

ـ كان يعمل من أجلنا.

ـ ويبدو أنه مات لينقذنا.

يزداد اللغز تشابكاً مع لحمي ودمي وعشر سنوات هي كل عمري، أسأل أعصابي عمّا كان يفعله أبي، نعم، أتذكر أنه قال يوماً بأنني سأفخر به، فكيف أعرف ما كان يفعله في ذاك المكان الذي يشبه "الخرابة" الموبوء بالحشرات والزواحف والفئران وآلاف القطع التي لا تعني أيّ شيء، فهي مجرد خردوات لا قيمة لها، محض خيوط وسشوارات تالفة وساطور أعمى وراديو عجوز وكتب صفراء توشك أوراقها أن تتفتّت بين اليدين، ثم ماذا ؟!

لم يخبرني أحد، ولا أمي أيضاً، عمّا كان يفعله أبي، وتأكد لي أن عائلتي نفسها لا تعرف أيضاً، وبعد رجوعنا من المقبرة، في الطريق

الترابي تذكرتُ أشياء كثيرة عما كان يخفيه أبي هناك، فقد رأيتُ ماكنة فرم وما يشبه التنوّر، إلى جانب أجهزة حديثة تعمل بالكهرباء، كان قد اشتراها وجاء بها إلى البيت، أتذكر بينها ماكنة نسيج ودوارق تصفية ومنشار كبير وأقفال من فولاذ وأكياس نايلون نظيفة وماكنة خياطة وميكرسكوب وجلود ومحرقة وبروجَكتر وسندان حديد وثمة أجهزة لا أعرف أيّ اسم لها!

تأتي ملامحه الآن مثل ضباب شفيف وهو يفرز الخردوات عن بعضها، كان يبتسم حين يمسّها، بل يغازلها ويمرح معها وعادة ما ينسى نفسه دون طعام، نظرتُ إلى المفتاح الذي صار مشبوكاً بين عروق مساماتي كجزء من يدي، رفعته بأصابع اليد الثانية، دخلتُ البيت ونظرتُ إلى باب المخزن الكبير، ثم نقلتُ عيني إلى ذاك المفتاح الذي صار يحمل رائحتي، اقتربتُ من الباب، وفي ساعة من زمني، ربما في لحظة خاطفة من عمري، قررتُ أن أفتحه حتى أنجز ما كان قد تبقى من شغل أبي.

٧ حزيران ٢٠٠٤

"المُبدع الكبير"

منذ أن نشر كتابه الشهير "تحسين اللسان في مدح الحسان" والأموال تنهمر عليه ذات اليمين وذات يُسر الحال، لكن عثمان السيّد يعرف أن كتابه هذا لا يستحق القراءة، فهو مجرد كلام مأخوذ بعضه من (رجوع الشيخ إلى صباه) وثمة صفحات مستلة من كتاب (الإمتاع والمؤانسة) ومن ترجمات باللغة الهندية التي وحده من يعرف أسرارها وخباياها بين أقرانه من الشعراء وكتّاب الرواية والفلسفة.

لم يكن الأمر عسيراً في تأليف كتاب آخر يبحث في العلاقة السرمدية بين الجنسين، لاسيما وأن قدامى أدباء الهند أمعنوا في تدوين هذا الجانب الحسي الذي يباع فوراً بين المراهقين والباحثين عن اللذة ويأتي بالدراهم والدنانير بسرعة البرق، لهذا راح عثمان السيّد يسهر الليالي بين الكتب العتيقة الصفراء يجمع المعلومات من بين سطورها المغبرة حتى تمّ له إنجاز كتابه الثاني "ما يفعله الحسد في ليونة الجسد" وهو بحق كتاب خطير يحكي عن السحر الأسود الذي مارسه قدامى السيخ والهندوس على أعدائهم في القرن التاسع عشر، وكان فعل السحر يأتي أولاً على طراوة الجسد الذكوري ويشطب على الجينات الوراثية من جذورها حتى يتم حرمان العدو من إنجاب الأطفال وتتحقق لهم الغلبة في أية حرب ستنشب بينهما في القريب العاجل حتماً.

ظهر الكتاب في ساعة نحس، لم يلتفت إليه غير قلّة من الذكور الشواذ، وتأكد الفشل حين عادت إليه مئات النسخ بعد مرور ستة شهور من تأريخ البيع، فأحس عثمان السيّد أن عنوان كتابه صار كما الثوب الذي يلبسه، فهاهو الحسد يفعل فعلته في ليونة الجسد!

رمى الكثير من الدنانير في جولة ثالثة، راهن بها مع نفسه على كتابه الثالث "الباه ولا الجاه" بطباعة فاخرة وغلاف أنيق باهر يثير النشوة والشبق العارم، وحقق الباه ولا الجاه ضربة كبرى في أسواق الكتب وأكشاك الصحف والمجلات، وراح اسم عثمان السيّد يتصدر قائمة أعلى المبيعات، بل صار عنوان الكتاب (مثلاً) يقال في كل جلسة (كيف) وسمر وفي كل مخدع خفي من الغرف الحمراء، حتى أوشك أن يكون شعار الدولة، لولا الخلاف الرهيب الذي اشتعل بين رجال الدين ومجلس النواب، وهي أول مرة في تأريخ البلاد تكون فيها جلسة النواب من أجل كتاب أراد له البعض أن يمزق ويحرق في قلب المدينة، بينما طالب الليبراليون تكريم المؤلف على شجاعته وجرأته في ذكر الحقائق دون أقنعة وبلا تزوير!

الحرب التي نشبت ما بين النخبة وعامة الناس رفعت منسوب البيع السرّي لهذا الكتاب، حدّ أن مطبعة الشرق لم تستطع توفير ما يحتاجه القراء من (الباه ولا الجاه) إلاّ بعد وجبة مسائية يطبع فيها الكتاب.

عند الفجر تمكن أحدهم من حرق المطبعة بكل ما بقي فيها من أوراق الكتاب، لعلها أول كارثة من هذا النوع تراها المدينة، لكن عثمان السيّد ـ وقد احتفظ بأصل كتابه الثالث ـ تمكن من إعادة طبعه وتعويض

اا اشر عن خسارته وترميم البناية مع إحضار مجموعة من الحراس ...ن البنادق لحماية المكان من الحرائق أو السرقات.

**

.سار عثمان السيّد من أكبر أغنياء العاصمة بعد أن باع من الباه لا الجاه أكثر من خمسمائة ألف نسخة في أربعة شهور، وتمّ ترجمة الكتاب إلى اللغة الروسية والصربية والبرتغالية واليابانية، وعند احتفاله الباهر بالطبعة الثالثة من هذا الكتاب الممتع تمت ترجمته حرفياً إلى اللغة الهندية دون مشورة المؤلف.

سقط عثمان السيّد على فراش المرض وهو يفكر في المصير المحتوم الذي ينتظره بعد أن رجع كتابه إلى أصحابه في الهند وكيف أنهم يكتشفون الحقيقة بعد قراءة الباه ولا الجاه، فما من شيء في هذا السِفر الإباحي إلاّ وجاء من قدامى فلاسفة الهند الذين أبدعوه منذ عشرات السنين!

أوشك المؤلف أن يموت بعد مائة يوم من النوم وهو صريع الرعب والشكوك من افتضاح أمره، وفكر أن ينهي حياته بيديه قبل أن يعرف القراء وأبناء مدينته ما كان يفعله من (الطش) واستخفاف بعقولهم حين راح يسرق أفكار سواه من المبدعين شرقاً وغرباً!

قرر في ساعة من تأنيب الضمير أن يكتب اعترافه قبل أن ينهي شهيقه برصاصة في البلعوم، جاء في خطابه المرسل إلى قارئه الكريم:

- "كنت أحب إثارة المتعة في نفوسكم، لست سارقاً بالمفهوم الذي عرفتموه اليوم عني، بل رأيت أن الحياة تحتاج منّا إلى شيء من الحركة حتى نتمكن من احتمال قسوتها وجنونها.. أرجو أن يسامحني كل واحد منكم

على جريمتي الصغيرة هذه، وهي كما ترون أصغر جرائم هذا العصر الغبي المزحوم بالحروب والنكبات والأخطاء.. سامحوني بارك الله فيكم وأحسن مثواكم، وهاأنا أعتذر منكم بقتل نفسي، فهل أستحق عفوكم عني؟".

* *

في الساعة الحادية عشرة من الليلة التي قرر فيها عثمان السيّد حسم أمره مع الحياة برصاصة على الرأس أو البلعوم، رنّ جرس التلفون.. رنّ كثيراً قبل أن يرفعه، ثمة من يخبره بصوت مملوء بالفرح:

ـ مبروك يا عثمان السيّد، ألف مبروك يا أُستاذ فوزك بالجائزة الكبرى عن كتابك الباه ولا الجاه.

لم يفرح عثمان لهذا الخبر العظيم، فما يزال مصيره المحتوم قيد المصادفة في أن يكتشف أمره قارئ من الهند، وربما تهبط فوق رأسه صاعقة ما إذا وقع الكتاب المترجم في بيت أحفاد المؤلف الحقيقي..

لكن الشكوك سقطت كلها حين قال التلفون ثانية:

ـ رَشحَتكَ جمعية أدباء الهند القدامى لنيل هذه الجائزة بعد أن جاء في تقريرهم السنوي بأنكَ قد تجاوزت في كتابك "الباه ولا الجاه" كل إبداع الماضي.

ولم يكن من أمامه في تلك الساعة غير أن يحرق اعترافه بعد أن أعاد المسدس إلى مكانه الخفي وهو يهمس مع نفسه في حالة من الرقص والنشوة والأمان:

ـ الآن، لابد من تأليف الرابع.

سحب ورقة بيضاء راح يكتب في أعلاها عنوان كتابه الجديد: لا شيء يعيد المهاجر مثل هزّ الخواصر.

في الساعة العاشرة قبل منتصف الليل من كل أربعاء، يأتيه من
ا.ا الجثة ويعطيه ألف دينار، بشرط أن تكون الجثة لرجل وغير مبتور
. ا أيَّ عضو مهما صغر حجمه.

كان يبيع الجثث التي يدفنها بيديه، منذ سنوات وهو يحفر في أرض
المقبرة، لا أحد يعرف عنه أي شيء سوى أنه رجل مؤمن وعفيف لا يأخذ
أكثر من حقه في الحفر وتأمين تربة صالحة طرية (للمرحوم) دون أن ينتبه
الـ.ـه أحد من أهل الميت وهو يواري الجثة التراب بطريقة يكون من السهل
ا.اجها ليلة الأربعاء ليقبض عنها ثمناً آخر أكبر!

صار ثمن الجثث يزداد شهراً بعد آخر، فما من جثة إلاّ وفيها شيء
ناقص، إصبع مبتور أو جمجمة خدّشها الضرب، بل جاءته إحداها دون
رأس، وبرغم ذلك ما يزال مساء الأربعاء هو نفسه الوقت الذي يتسلّم
فيه أجرته عن توفير جثة من الذكور.

لم يسأل عن مصير الجثث التي باعها، فما أهمية الميت بعد خروج
الروح؟ وهاهو يزداد ثراء سنة بعد سنة، اشترى عمارة من ثلاثة أدوار في
كل طابق منها ثلاث شقق يتسلّم إيجاراتها كل شهرين، وله في الشوارع
اثنتا عشرة سيارة أجرة يأخذ عن كل واحدة تسعة دنانير في اليوم الواحد

دون أي شرط أو مساومة أو اعتراض من سائقيها، بينما أقرانه في المحلة على يقين من أمر لا اختلاف عليه، هو أن حفّار القبور "جياش أبو رمانة" من أكثر الناس شرفاً وأمانة وعفة، ولم يكتشف أمره أي إنس أو جان مع أنه ـ بعد أربعة أعوام ـ تمكن من شراء عمارة ثانية، أربعة طوابق أمامها حديقة شاسعة يمرح فيها أطفال العمارة في الليل والنهار.

يجلس في المقهى مساء كل يوم، يرى أجساد الرجال ويفكر: جميعها صالحة للبيع، لكن الموت بعيد عنها..

وفي أول أربعاء من شهر نيسان، بعد أعوام من البيع والشراء ونبش القبور، عند الساعة العاشرة ليلاً، لم يحضر الرجل الذي يعرفه، اقترب أحدهم وقال له:

ـ البقية في حياتك يا جياش، مات عبد العباس الذي يأتي إليك منذ سنين، وأنا أرسلوني في مكانه، لن يتغير أيّ شيء، سآتيك كل أربعاء كما كان يفعل.

حوّم الشك حول رأسه، فقال بسرعة:

ـ لا أعرف عن أي شيء تحكي..

قال الرجل وهو يحاول أن يأتي بصوت يبعث الطمأنينة:

ـ لا تخف يا سيّد جياش، أنا أعرف كل شيء، وأنا واحد منهم، ولا تنس أنك بحاجة إلينا.

وبرغم الريبة التي انتشرت في عروق جياش وتحت مسامات جلده، إلاّ أنه تساءل مذعوراً:

ـ ماذا تعرف، وماذا تريد مني؟ ومن يكون عبد العباس الذي مات؟ ما شأني أنا بما تقول؟

قال الرجل دون تردد:

ـ أريد جثة الأربعاء، وحسابك عندي منذ اليوم. نهض جياش وهو يتمتم بكلام غريب:

ـ تعال غداً فأنا لا أفهم ما تقوله الآن.

غراب، أو هو طائر يشبه الغراب، وقف على مقربة منهما دون خوف. صاح الرجل:

ـ ما أقوله غداً هو نفسه ما قلته لك اليوم.

أنهى جياش شكوكه بالقول.

ـ أنا رجل على باب الله، لا أعـــرف مـــاذا تريد مني ولا أريد أن أعرف.. لا أريد أن أعرف ولا أريد أن أراك..

ثم هرب إلى بيته بين القبور كما لو أن مئات الجثث تركض خلفه، بينما الطائر الذي يشبه الغراب لم يزل في مكانه دون خوف.

صار الخوف يسكنه في الليل حدّ أنه يمشي بين القبور التي سرقها ويفكر في مصيره إذا ما عرف بأمره أحد من أقارب الموتى الذين ذهبت جثثهم إلى حيث لا يدري بها حتى هو نفسه.. الرعب صار كما الثوب المخرّم بالدبابيس، ينقلب على فراشه يساراً أو يميناً أو ينام على بطنه، فتوخزه العشرات منها، مما يرغمه على ترك الفراش والذهاب ثانية إلى القبور حتى يهبط النوم في ساعة سحر من ساعات الصمت في أول الفجر، يفكر بالمقلوب ويحتك بالوساوس:

ـ ربما كان الرجل الذي جاءني مجرد تاجر آخر من تجار المهنة، يريد أخذ مكان عبد العباس، ذلك أن تجارة الجثث على ما يبدو باتت مجرد عمل يشبه أيما عمل في السوق، والجثث لم تعد غير سلعة حالها حال الباذنجان والقمصان والبطيخ وإطارات العربات.

فكر ثانية وهو يقرأ شواهد القبور التي قام بنبش حرمتها، ربما راح يفكر بصوت مسموع: ماذا تراني أريد من الدنيا أكثر مما أنا فيه، عمارتان واثنتا عشرة سيارة وحساب توفير في البنوك يزداد عاماً بعد عام، حتى أنني ما عدت أتذكر كمية ما أملكه من أموال، ماذا أريد أكثر من ذلك؟

لهذا، قرر فوراً، بأنه سيترك بيع الجثث ولن يرتكب الجرم بعد هذا اليوم، بل سيذهب خاشعاً إلى بيت الله الحرام حتى يضع صفة الحاج قبل اسمه، وهذا يكفي لبراءته من الريبة والشكوك التي قد تعلق في أذهان البعض، إذ من غير الممكن أن يقوم "الحاج جياش أبو رمانة" ببيع الجثث ومن المستحيل أن يصدق ذلك أيّ رجل يعرفه، فما من أحد يعلم بأمر العمارتين أو يدري أي شيء عن أمواله المنثورة في البنوك أو رأى أية سيارة أجرة تشتغل لصالحه، فقد أخفى كل ذلك بدهاء فطري يوم اشترى عمارته الأولى في سوق الشيوخ، والثانية عند أطراف بغداد، بينما قوافل سياراته مازالت تعمل في البصرة على بعد مئات الكيلو مترات عن مقبرته، وكذلك الحال بالنسبة لأمواله الموزعة ما بين تكريت ونينوى، بل تمكن أن يخفي الكثير منها في دمشق يوم زارها قبل عامين، فمن أين لهم كشف المستور وهو الذي يرتدي الدشداشة الرمادية نفسها منذ وقت طالت وساخته وأتربته، حتى أنها صارت تشبه الأرض التي يحفرها ويدفن فيها الجثث التي وهبته كنزاً لم ينضب على مدى عشرة أعوام من السرقات ونبش القبور!

* *

جاء الرجل إلى بيته وطرق الباب عليه، وقبل أن يفتح له أحس بالذعر يتجاوزه إلى حالة من الشلل، إذا به يسمعه يقول بصوت مهذب:

ـ يا سيّد جياش، يا أخانا العزيز، أرجوك أن تصدقني، فأنا البديل الوحيد للمرحوم عبد العباس وأنت بحاجة إلينا كما نحن بحاجة إليك.

أجابه جياش من وراء الباب كما لو أنه يحمي نفسه من الموت:

ـ أنا لست بحاجة إلى أحد، ولا أدري عن أي شيء تسأل وماذا تريد؟

قال الرجل وهو يوشك أن يضحك حين رأى الباب يفتح على ملامح جياش المرعوبة:

ـ جثة الأربعاء ستبقى من نصيبنا، وإذا أصابك الشك فأنا سأعطيك ما تشاء من إثباتات بأننا لسنا من تظن، لا نريد منك غير الجثث التي كنت تبيعها لنا في كل أربعاء، وسنعطيك الثمن نفسه ولن يتغيّر أي شيء.

أحسّ جياش بشيء من الراحة، خفّت الدبابيس عن وخزه، كما اختفى الوسواس عن أرض المقبرة، يبدو أن الحياة يمكنها أن تستمر كما تتمنّى وليس من حاجة للذهاب إلى بيت الله، وربما يشتري عمارة ثالثة في أقرب فرصة مادام تجار الجثث بهذه اللهفة لشراءها!

ذهب جياش أبو رمانة إلى أطراف المقبرة حيث جاءته آخر جثة، أخرجها وأعطاها إلى الرجل الذي جاء بعد رحيل عبد العباس وتسلّم النقود كما لو أنه يبيع زوج حذاء غير مرغوب فيه.

لم يتمكن أبداً من اكتشاف السرّ وراء شراء تلك الجثث، فات أوان الشك في أمر غريب كهذا، وعند آخر الليل راح يمشي ذهاباً وإياباً بين القبور التي أمست شبه خالية من جثث الرجال وصارت مقبرة للنساء فقط، فتذكر حينها أول مرة باع فيها جثث الموتى وكيف مسّه الرعب حتى تكرر ذلك عشرات المرات!

راح ينفث دخان سيجارته طرباً، ولم ينتبه إلى القبر المفتوح الذي عافه بعد بيع الجثة، سقط في الحفرة وحسم أمره مع الحياة.

بعد أسبوع واحد، عند العاشرة ما بين المساء والليل، عاد الرجل إلى بيت جياش حتى يتسلّم جثة الأربعاء، رأى الباب مفتوحاً وليس من أحد هناك، راح يمشي بين القبور، لابد أن جياش سيعود حتماً، إذا به يراه في حشوة القبر المفتوح، ولما تأكد من موته رفع الجثة وطار بها إلى (البيكاب) التي أوقفها عند بوابة المقبرة، يوشك أن يرقص من فرط فرحته وهو يقول:

ـ هذه المرة، جثة ببلاش.

علّق المعطف على مسمار في حائط غرفته، ورمى نفسه على فراش عتيق ينفث رائحة النفتالين، وقبل أن يغطّ في نومه سقط المعطف والمسمار على قنينة خمر انثلم رأسها وتسربت الخمرة إلى مسامات المعطف.

نام بثيابه وحذائه المتهرئ، ثمة من يطرق باب غرفته، ثم دخل إليها عنوة، رائحة الخمرة والنفتالين والفراش العتيق تزكم الروح.. أيّ (شيء) هذا الذي ينام في مكان كهذا؟ لا يمكن حتى للجرذان أن تحيا في هذا الجحر المتعفّن.

خرج الطارق بسرعة بعد أن ترك رسالة قصيرة جاء فيها:

ـ السيّد غسان، عليك الحضور في التاسعة من صباح الأربعاء إلى محكمة الكاظمية، جاءك مال كثير من عمك الذي مات قبل شهرين في (جنوى) ولا تنسِ أن تأتي بوثيقة تثبت أنك غسان جعفر البهبهاني.

المعطف تشرّب بالخمرة تماماً، والهواء الذي تسلّل من بين الزجاج المكسور راح يغازل غسان البهبهاني ويرميه إلى حلم عجيب، يرى نفسه في قصر شامخ، يعوم في ماء ساخن أسقط عنه وساخة جلده التي دامت أكثر من عام دون أن يقرب الماء، وفي شعاب القصر زهور فارعة

الأغصان تأتي بروائح من أعذب ما يشمّه البشر، ثمة نساء في كل غرفة من أجنحة القصر الممتدة غرباً نحو غابات كثيفة من اليوكالبتوس والبرتقال والليمون والنارنج، لعله أطول ما رأى في حياته من غابات وقصور، سماء زرقاء توشك أن تلمسه، والنساء يسرحن في زوايا القصر المضاءة بالشموع، وكل واحدة منهن تتوسل أن يأخذها إلى غرفته المزحومة بالفلّ والنبيذ والياسمين، لكنه يتبختر بينهن عارياً إلاّ من ورق التوت.. كم كان وسيماً ونظيفاً في ذاك الحلم الذي طال وتشعّب وتناسل صوب حلم أحلى وقصور أجمل وصبايا أكثر!

في الثامنة صباحاً أيقظه الحمار الذي ينهق تحت سقف الزريبة، وشارك في إيقاظه أولاد الزقاق وهم يرشقون الحجارة على أعمدة النور، كان أول شيء رآه، معطفه المبلّل بالعرق الزحلاوي، والمسمار الذي ثلم قنينة الخمر، بينما الورقة التي جاءته من محكمة الكاظمية تتحرك أمامه دون أن يلتفت إليها.

نزل إلى الزقاق، لا يدري أي رزق سيأتيه اليوم، فهو يحمل أشياء الناس الثقيلة ويأخذ أجرة أكبر كلما كانت البضاعة أثقل.

الورقة مازالت تتحرك في غرفته مع موجات الهواء الذي يلمسها من بين كسور الزجاج، فجأة تذكرها، ذلك أن غرفته خالية تماماً من الورق، فمن أين جاءت تلك الورقة التي رآها قرب رأسه في الصباح؟

عاد إلى الجحر الذي عافه منذ دقائق، فتح الباب ومدّ أصابعه إلى "السيّد غسان عليك الحضور في التاسعة..." واليوم هو الأربعاء، وما يزال الوقت ملك يديه حتى يمضي إلى الكاظمية ويأخذ أموال عمّه العظيم الذي ترك له ثروته بعد هذا العمر الرهيب من الغربة.

.. أل بواب المحكمة عمّن سيعطيه المال الذي جاءه من وراء البحار،
ا ا، ملمه البواب أن يمضي إلى القاضي الأول، فهو يملك الحلّ والربط
،الم، ار، وبدوره أخبره القاضي إن كان قد جاء بإثبات رسمي على أنه
، ان جعفر البهبهاني، فقال وهو يبتسم:

أنا غسان وأهل المحلة كلهم يعرفون من أكون.

وال القاضي:

ـ أنا لا أريد أهل المحلة، بل أرجو منك أن تثبت بنفسك أنك المدعو
... ان جعفر البهبهاني، جواز سفر، هوية أحوال مدنية، دفتر خدمة
... كرية، أي شيء، ذلك أن المبلغ الذي وصل إليك أكثر مما تظن يا سيد
... ان.

* *

عاد إلى غرفته الميتة، يفتش عن شيء يقول إنه غسان، وأنه ابن
... النجار المركون على عشيرة البهبهاني، لكنه لم يجد ما يثبت ذلك.

توسل القاضي أن يمنحه فرصة القسم على كتاب الله، لكن القاضي
.. ر قوله ثانية.

ـ إنه مال كثير ولابد من إثبات رسمي لا يقبل الشك.

تذكر الحلم الذي عاش فيه داخل ذاك القصر المنيف، كيف أنه غسل
. لده في الماء الساخن وأنقذ مساماته من الوساخة التي علقت به طوال
. ا يقرب من عام، كيف يمكنه الرجوع إلى أجنحة القصر ونساء القصر
، الما ، الذي تساقط فوق رأسه يمسح العفن الذي دام أكثر مما يجب!

أخبره القاضي أن يأتي بشاهدين يقسم كل واحد منهما أنه هو نفسه
"غسان جعفر البهبهاني" حتى يتمكن من صرف الثروة التي جاءته من

جنوى، لكن الناس في ذاك الزقاق تركوه وهم يضحكون على هذا الأبله الوسخ الذي يظنّ سهواً بأنه قاب قوسين من الغنى والرفاه!

نظر غسان إلى القاضي، أخبره أن لا أحد في هذا العالم يعرفه، وأنه مجرد نفاية في غرفة بائسة قرب زريبة الحمير تتبرأ منها حتى الفئران، فكيف يمكنه إقناع الناس على الاعتراف به؟

لكن القاضي الأول، وهو من أشرف الناس في محكمة الكاظمية قال بصوت مسموع في غرفة مغلقة لا أحد فيها غير المواطن غسان البهبهاني:

ـ ما رأيك يا سيد غسان أن نقتسم المال وأكون أنا شاهدك الأول ونأتي بشاهد آخر أعطيه بعض حصتي؟

الحمار ما يزال ينهق كل صباح في الزريبة، والماء الساخن في القصر ما يزال ينهمر على الجلد المتعفن، لم يفهم غسان، لكنه أيقن في لحظة من الزمن، أن لا أحد يمكنه تدبير حلّ أفضل من هذا، نصف المال أجدى من ضياعه دون شك.

هزّ رأسه: نعم.. فهذا أفضل بكثير من أن يموت الحلم الوحيد الجميل الذي جاءه ليلة أمس، لاسيما وأنه تمكن بعد عام طويل أن يعوم في ماء ساخن.

* *

كل شيء يبدو على ما يرام، ستأتي أموال العم الراحل ويحقق الحلم في أن يغسل حاضره وفروة رأسه وجلده في وقت واحد.. قال القاضي:

ـ هل تدري كم ترك عمك من مال إليك؟

ـ العلم عند الله يا سيدي الحاكم.

ـ أمـا من فكرة طرأت على بالك؟ ألف دولار أو أقلّ من ذلك أو أكثر.. مثلاً؟

قال غسان وهو يخفي أفراحه داخل معطفه السكران:

ـ كل ما يأتي هو خير من عند الله يا سيدي القاضي.

عندها راح القاضي يقرأ في ملف أخضر كان بين يديه منذ أن دخل غسان إلى تلك الغرفة التي جاء في أعلى جدارها (وإذا حكمتم بين الناس...):

ـ يا سيّد غسان، عمك خالد عزيز البهبهاني المقيم في جنوى منذ ثلاث وعشرين سنة ترك لك نصف مليون دولار ومنزلاً ريفياً هناك، مفتاحه لدى رجل أمين اسمه "براهام بلير" وعندك العنوان في هذه الورقة، كما أنه في حال بيعك ذاك المنزل، لديك وكالة خاصة باسمك أن تأخذ ثمن البيت من سفارة إيطاليا بشيك يصلك من براهام بلير نفسه.

راح غسان يكرر "الحمد لله" عشرات المرات، فهو لن يحمل أثقال الناس على ظهره بعد اليوم، وما صار يملكه الآن يكفيه ثلاثة أعمار أخرى غير عمره الذي أمضاه بين الفقر والفواجع والوساخة.. إنه يسمع قول القاضي من وراء صدى شفيف:

ـ البيت الريفي ثمنه نصف مليون أيضاً، وهذا يعني أنك الآن مليونير بمعنى الكلمة، فماذا بقي عندنا حتى ننتهي من إجراءات إرثك هذا؟

قال غسان بشيء من الخوف:

ـ الحمد لله، كل شيء على ما يرام، فماذا أفعل حتى أتسلّم أموالي؟

تحرك القاضي في مكانه وهو يقول:

ـ الآن، يجب أن نثبت أنك غسان البهبهاني، الوارث الحقيقي لأموال عمه في جنوى.

قال غسان وهو يتأرجح فزعاً مما يسمع:

ـ لكننا يا سيّدي القاضي اتفقنا على اقتسام الثروة، لك نصف ما جاءني كما قلت لي.

هنا، صار العالم كله، محض نقطة ماء في محيط شاسع عندما رفع القاضي رأسه وهو يصرخ به:

ـ قبّحك الله أيها المعتوه الوسخ، من الذي قال كلاماً قذراً كهذا؟

هل قالها القاضي حقاً أم تراه توهم الحلّ هكذا؟ لا يدري، رأسه يتأرجح لم يزل في بقعة من الأرض ليس من حياة فيها ولا حدود لها.. من ترى قال نقتسم المال وأكون الشاهد؟!

* *

علّق المعطف على حائط ليس من مسمار فيه، سقط المعطف على زجاجة خمر مثلومة الرأس، رمى نفسه على فراش عتيق ينفث رائحة زنخة تهرب منها حتى الجرذان، غطّ في نوم قلق مخمور، رأى نفسه في قصر باذخ ليس من أساس له على تربة المدينة.. قصر يتموج بين الغيوم تتسرّب من شقوقه رائحة الليمون والنارنج والبصل، هناك غابة ونساء وماء، غسل رأسه تحت نخلة سامقة، يشمّ جوز الهند والبرتقال والصابون، هناك غابة تمرح فيها الغزلان والثعالب والحمير، الصبايا الحسناوات يقفن في طابور أعوج، وكل واحدة منهن تمسك (فلّة) تشمّ عطرها.. لكن الغابة مازالت تعج بالغزلان والحمير والثعالب.

في الثامنة أيقظه الحمار الذي ينهق كل صباح تحت سقف الزريبة، قرأ الورقة التي جاءته من الكاظمية، السيّد غسان، الحضور في التاسعة من صباح الأربعاء، جاءك مال كثير من عمك الذي مات في جنوى، لا تنسَ أن تأتي بشيء يثبت أنك البهبهاني.

المعطف ما يزال على أرض الغرفة، مبللاً بالخمرة والتراب، نزل السلام الخشبية، فات من تحت سقف الزريبة في طريقه إلى الزقاق.. لا شيء في هذا العالم يثبت أنه غسان جعفر البهبهاني.. الناس تمر به، لا أحد منهم يلتفت إليه أو يقول صباح الخير، فجأة، وقف غسان في مكانه، وقف دون أيما حركة، والناس تمر حوله ولا تعبأ به.

لا أحد منهم يلتفت إليه، إلاّ حين راح ينهق مثل حمار الزريبة الذي يوقظه كل صباح.

* *

تلك كانت أول مرة يرى الناس فيها، بينما الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، رجلاً ينهق.

نهاية ٢٠٠٣

زيارة ميّت!

مشيتُ ذهاباً، شرقاً وشمالاً، ورجعتُ غرباً وجنوباً، أقرأ عناوين مئات الكتب، أفتش عن أوسكار وايلد، ودينو بوتزاتي ، وهنري ترويا، ضاعت مني "صورة دوريان غراي" و"صحراء التتار" و"الميّت الحي" ومنذ عشرين سنة مرت على أول قراءة لم أعثر ثانية على تلك الروايات التي جننت بها.

فجأة، وأنا أمشي بخفة الغزال بين دكاكين الكتب ودور النشر التي تشارك في معرض القاهرة، رأيت شمس الدين موسى وهو يبتسم، ثم يصرخ بي:

ـ صديقي الذي أحب.. أهلاً بكَ في دنيا الكتب العظيمة.

كان كعادته، يلبس بدلة سوداء وقميصاً أصفر، هي نفسها الثياب التي طالما اشتركنا برغبتنا فيها على مدى سنوات مضت قبل أن يرحل عنا!

قلت له وأنا أمسك "عصفور من الشرق" بين أصابعي:

ـ ماذا أرى يا شمس؟ هم أخبروني بموتك منذ عامين؟

قال وهو يقترب من أنفاسي:

ـ وما الغرابة؟ يحق للموتى زيارة المكان الذي يرغبون به، وأنا كما تعرف يا صديقي عشتُ حياتي بين الكتب والكتابة.

رميت نفسي على أول دكة إسمنت، أحاول تفسير ما أرى:

ـ هل أنا وحدي الذي يراك يا شمس الدين؟

قال بلا مبالاة:

ـ لا أدري، ربما يراني غيرك أيضاً، لا شيء يهم، أنا في زيارة عابرة وسوف أعود إلى مكاني (هناك) ولن أمس أحداً بسوء.

لم أزل في حيرة من أمري، كيف تأتّى لي رؤية شمس الدين موسى في هذا المكان الذي منعوني من زيارته قبل تسعة شهور بعد أن رفضت سفارة مصر إعطائي تأشيرة لدخول أرضها.. لا أفهم، برغم أنني مازلت أمشي بين صفوف الشعراء والنقاد والروائيين، أكاد أمد يدي أصافح بها ماريو بارغاس يوسا وأنطونيو غالا والطاهر بن جلون وطه حسين وغارسيا ماركيز وهيرمان هسه، لكن المسعودي وابن مالك وأوجين أونيل وشولوخوف وجان بول سارتر أخذوني معهم إلى جهة أخرى من دكاكين المعرفة، أرى شمس الدين موسى يراقبني وأنا بصحبة دوريس ليسنغ وإيزابيل الليندي وسيمون ديبفوار، يضحك بدوره بين ليلى بعلبكي وغادة السمّان وبيرل بك، سعيد بما يرى من كتب لم يرها في حياته، كلها صدرت بعد رحيله المبكر دون أن يتذكره أحد من الأصدقاء أو يكتب سطرين عن إبداعه وترجماته وطيبته!

* *

بعد جولة دامت أربع ساعات في زوايا ومنحنيات معرض الكتاب، خرجنا أنا وشمس الدين، وفي الطريق سألني عما فعلته بعد موته، قلت:

ـ كتبتُ عنك رثاء أقول فيه(من شبرا إلى المقبرة) نشرته في عمّان، كما ظهر الرثاء في كتابي (باب القشلة) كانت زوجتك تكتب لي عن مستحقاتك في بغداد.. يبدو أنها لا تدري بأنني غادرت بلادي منذ خمسة أعوام.

مشينا شوارع القاهرة، جلسنا في المقاهي والحانات، كانت مقهى ريش قد أغلقت أبوابها أمام الفقراء وصارت أثمان وجباتها تزيد على أربعين جنيهاً، لهذا رحل جميع الشعراء إلى مقهى زهرة البستان على بُعد عشرة أمتار منها، أما الحانات الليلية فما عادت تعرف غير باعة الحشيش والمرابين والقوادين، وانتهى زمن الخمرة التي يتسامر حولها الأدباء بعد أن صار ثمن زجاجة البيرة أعلى من سعر القصة القصيرة بثلاث قامات!

ثم مضينا إلى آخر فيلم لديستن هوفمان في سينما مترو وفوجئنا بتلك العفوية التي تتحدّى حدود العبقرية في التمثيل.

* *

وقفنا عند رصيف مكتبة مدبولي، قرأنا عناوين الصحف في منتصف الليل:

ـ العراق في قبضة أمريكا، أم أمريكا في قبضة العراق!؟

ـ القبض على مايكل جاكسون وهو يرقص ويعتنق الإسلام!

ـ سقوط عمارة سكنية في بولاق الدكرور وموت جميع ساكنيها ليلاً!

ـ شاكيرا ومليون دولار عن إعلانها الأول لمشروب الببسي كولا!

بكيتُ على ما يجري في هذا العالم الغرائبي المضحك، قال شمس الدين موسى في الثالثة فجراً:

ـ ألا تريد أن ترتاح يا صديقي؟ نحن في آخر ساعات الليل.

قلت بسرعة:

ـ صدقني، لا أشعر بالتعب، فأنا كما تعلم أُحب القاهرة جداً.

قال شمس الدين وهو يرفع يديه نحو السماء بطريقة مسرحية طالما رأيناها في أعمال شكسبير الأولى:

ـ يا لكَ من عاشق عنيد لهذه القاهرة التي قهروها..

نظرتُ إلى ملابسه التي تشبه ألوان ثيابي وقلت له وأنا في حالة وجد ـ لا أفهم سرّها ـ لم أعشها طوال حياتي:

ـ أنت ميت يا شمس الدين، فهل تدري، عفواً، أنك ميت؟

قال دون اكتراث:

ـ طبعاً، أنا ميت منذ عامين وأكثر.. وأعرف ذلك منذ عامين وأكثر..

أثقلني الحزن حقاً وأنا أسأله:

ـ كيف تراك أيقنت بأنك ميت؟

أجاب وقد استغرب السؤال:

ـ الميت يعرف أنه قد مات، ذلك أن ملابسه لن تتغيّر أبداً بعد ساعة الرحيل.

قلت ضاحكاً مع شيء من الخوف:

ـ لكنه يمضي عارياً في كفن أبيض..

قاطعني فوراً:

ـ هو يمضي بآخر ما كان يرتديه من ثياب، أما الكفن فهو الذي يغسل بعض ذنوبه، وربما ينقذه من أسئلة كثيرة ستأتي لاحقاً بعد موته.

قلت جازماً:

- أنا لا أفهم قولاً كهذا.

قال هادئاً:

- ستعرف كل شيء حين تموت.

لم أغضب من قوله، فهو صديقي منذ ثلاثين سنة، بل رحت أقول بشيء من البلاهة:

- لا تزعل مني يا شمس، فأنا حقاً لا أفهم ما تقول، هل كانت بدلتك السوداء وقميصك الأصفر آخر ما كنت تلبسه حين جاء موعد موتك؟

قال دون أن ينتظر بقية الكلام:

ـ نعم، تلك كانت ثيابي قبل رحيلي.

سألته بخوف مؤكد:

ـ وكيف يعرف الميت بأنه قد مات فعلاً؟

أجاب بسرعة:

ـ عندما تبقى الملابس نفسها على جسده ولن تتغيّر أبداً.

* *

انتهت أيام الكتب في معرض القاهرة ٢٠٠٤ ولم أعد أرى شمس الدين موسى، ذهبتُ إلى مقهى الفيشاوي في الحسين وإلى زهرة البستان ومقهى ريش ومخزن البيرة في ميدان طلعت حرب.. أمضي خفيفاً كما الغزال إلى أتيليه القاهرة، ورولیت سمير آمس، ونادي السينما، وأهرامات الجيزة، وفندق الكوزموبوليتان، وشبرا الخيمة، وكافيه الجوريون، وما من أثر لهذا الصديق الذي فوجئت برؤيته بعد موته..

تمر الليالي وأنا أنقل نفسي من بار إلى بار ومن شارع في مصر الجديدة إلى زاوية في الزمالك أو المعادي، وما من شيء أو أحد يخبرني

بما جرى لشمس الدين الذي اختفى تماماً في لمح البصر كما ظهر فجأة ذات صباح في معرض الكتاب!..

* *

دام بقائي في القاهرة أطول مما نويت، انتهت أيام تأشيرتي ولم أعد أعرف ما سوف أفعله في بقية الوقت الذي رحت أقطعه بين المقاهي والحانات ودور السينما ومواخير آخر الليل ولا ينتهي أبداً..

ثم تأكد لي ذات مساء يتموج بين الغيوم والسحب البيض أنه ما كان من حقيبة معي طوال رحلتي، كما أن ثيابي لم تتغيّر أبداً منذ هبوطي مطار القاهرة لحضور معرضها الدولي للكتاب، مع أن زوجتي ـ على ما أتذكر ـ جاءت بصحبتي ولم أرها أبداً؟

في بار العيّاش

كما غادرته منذ تسع سنوات، ما من شيء تغيّر فيه، الكراسي المتسخة نفسها، الجدران المنخورة والزجاج السميك الملوث بأصابع السكارى، حتى "بطرس" الذي نسمّيه (طوط) مازال كما تركته، لم يتغيّر، سوى شعرة بيضاء واحدة تسللت إلى شاربه الهتلري المضحك.

لم يكن من أحد في بار (العياش) يدري بعودتي، تسعة أعوام بين روما ونوتيسكا ولوريكا والبندقية وفراوكا وبراغ ورورديكا وبوخارست وبرلين، أيام من الجوع والخوف لا أتذكر فيها ـ يا للغرابة ـ غير أصحابي في (العياش) وهم يحتسون الخمر ظهراً وليلاً، وفي وقت الراحة عند المساء يشربون البيرة ويحلمون بالماضي الذي ابتعد عنهم فجأة.

كيف تراها ظهرت، نوتيسكا، التي حملت عنها حقيبتها من محطة مامايا إلى بيتها الجميل قرب البحر، إنها أول من رماني إلى شوارع الغنى وأعطاني جواز الصبر على تشردي وضياعي بين الرومان.

خيمة في كونستانسا، عشنا فيها ليلة مسبوكة من فرح الدنيا، ابتسامة لا تفارق صف أسنانها، إذا قالت أحبك تمشي بنا الخيمة مسافة أمتار قبل أن تسقط فوقنا، إذ نكتشف كيف رمينا بأنفسنا في البحر وصار يشاركنا الخيمة والصراع اللاهث تحت ذاك الفراش المبلل برذاذ الليل وندى الأسود الجميل.

حلم طالع من البحر كانت نوتيسكا، وحدها التي جعلتني أبكي سنواتي وأيّام بار العياش التي خدّرتني، سألتها ذات يوم: إن كانت تحبّني حقّاً؟ ضحكت قبل أن تصفعني على غبائي وقبل أن تصرخ بي:

ـ أيّها الأحمق، لماذا إذن كانت الخيمة تمشي بنا وتعبر البحر الأسود في نصف ساعة؟

لوريكا سحبتني من نوتيسكا، لوريكا سرقتني فعلاً، أخذتني من يدي إلى قصرها العتيق، أرغمتني على البقاء نصف عام في غرفة من حرير وصراخ من حرير، هي التي قالت: أنت سيدي ونصف ما أملكه بين يديك إذا بقيت معي.. كانت أطول مني، إذا رفعت رأسي إلى عنقها أتمنّى أن يراها أصحابي في بغداد، لوريكا ثلاث نساء في جسد بض واحد وأفخاذ تكفي عشيرة، تعشق الثياب وتختار أحذيتي وبنطلوناتي بإحساس هستيري لامع وعنيف.

ملابسي وأنا أدخل بار العياش، لا تشبه تلك الثياب التي رميتها إلى شحاذ أنيق في محطة (تيريستا) يوم راحت فراوكا تضحك من بلاهتي وأنا أدخن المارجوانا وأسقط في مياه (الأدرياتيك) الحمراء.

أنثى من خمر وسجائر وتبغ ممنوع، رائحة الشيكولاته والهيروين لا تفارق فمها أبدا، تنام في النهار وتغازل الرجال والكلاب والأرض والخمور في الليل، فراوكا جسد لا يهدأ وعقل مزحوم بالمؤامرات والأسرار والعيوب الجميلة، تعرف النصابين واللصوص وباعة الكلاب المسروقة وتجار الحشيشة، وتعطي أموالها بسخاء مريض.

لا أصدق بعد هذه السنوات التسع بأنني سأراها ثانية، هي التي قالت: أنت الوحيد الذي تمكن أن يرغمني على طرد (كلبي) الذي

عاشرني نصف عمري... كلبها الذي اشترته بثلاثة آلاف دولار من مزاد الكلاب السنوي.

أصبحتُ كلبها الثاني، طوقتني بالثياب الذهبية، أخذتني معها إلى زغرب وبلاتون وباريس ولشبونة، تطعمني بيديها وتبتسم إذا ما احتسيت البيرة، يوم أخبرتني (أنّ الفرق بيني وبين كلبها القديم هو أنه لا يشرب البيرة إلاّ إذا سحبت ذيله مرتين) تركتها واختفيت في البندقية لئلا تطاردني وترغمني على الرجوع.

وحدها فراوكا التي سرقت منها ـ طوال نصف عام ـ عشرات الهدايا وآلاف الدولارات وصار عندي حساب في بنوك نابولي وميلانو قبل أن تسقط فوقي أمطار روديكا المخبولة، جسدي الذي ترعرع في صالات الرقص، الجسد الطفل الذي أشبع النساء ولم يشبع، كنا "أنا وروديكا" آخر من يغادر تلك الفراديس الصغيرة، نرمي جسدينا فوق الأعشاب نضحك من زمان مازال يرقص حتى الفجر.

كم مرة أخذتنا الشرطة، ينظرون إلى كارنيه روديكا، يتلعثم الضابط الروماني الوسيم ثم يعتذر، سألتها: كلهم يخافون منك يا روديكا، لماذا؟ قالت: هم يخافون أبي فهو من حماة شاوشيسكو.

نجوت من روديكا ورجعت إلى بار (العياش) أبحث عن سنوات لا أدري ماذا جرى خلف ظهري في لياليها، وأنا أجمع آلاف الماركات في زوايا برلين وفي خبايا روما وكونستانسا، دفعت الباب ونظرت إلى السكارى... إنهم ـ كما كان الحال قبل ذهابي إلى البحر وغيابي عنهم ـ يتشاجرون على نصف دينار وصحن مزة ناقصة بينهم، رائعون وهم يتسامرون حول حكاية ـ مازلت أذكرها ـ عن امرأة لها أفخاذ من مرمر، وخصر من عنبر، وشفاه من قصب السكر..

جلست بينهم، بل سقطت عليهم، يوسف ورياض وحميد وسيف وسامي وياسين وخزعل وصلاح وعبد الرحمن، نبض قلبي القديم المسكين، ما إن خبت أمواج الدهشة في عيونهم، حتى رأيت نفسي ـ بهدوء ـ أعود إليهم، ودون وعي مني نسيت على غفلة من ذاكرتي ملامح نوتيسكا ولوريكا وفواوكا ورورديكا، ورحت أحكي معهم وأسأل مثلهم عن امرأة عراقية حلوة تمر من أمام العياش أتذكر منذ تسع سنوات فقط أن لها أفخاذ كالمرمر وخصر من عنبر وشفاه من قصب السكر..

كنا نضحك..

كنا جميعنا نبكي، رحلت باخرة العمر صوب نهايات البحر الأسود، ربما غرقت صناديق تجارتي بين أسماك البحر وحيتان القرش، لكن الملايين التي رجعت بها كانت من نصيب إنسان آخر غيري، ربما يحمل إسمي، صناديق ذاكرتي سقطت في بحر الماضي، بحر أعوام تسعة من المتع المجنونة والأكاذيب، قلت لهم كل شيء عن ذلك المخبول الذي ربط أكاذيبه بسلسلة من الحرمان والذكريات والخمر المغشوش... قلت لهم كل شيء، ليس من أحد أخاف منه، ثمة آلاف الكيلو مترات بين رأسي وحدود روما وبراغ وبرلين، وهناك آلاف أخرى بين قلبي الكذاب ونبض لوريكا ونوتيسكا وفراوكا ورورديكا...

في آخر الليل ـ نزعت طوق الكلب ورميته في وجه فراوكا ـ كنت وحدي من يتكلم في بار العياش ـ كلهم يصغون إلى تسعة أعوام بين مامايا والبندقية ودرسدن، كنت أحكي ببطء وهدوء، فقد دفعت الحساب ظهراً ومساء وليلاً، كنت أرى نوتيسكا تدفع أثمان المزة والخمر، بينما راحت لوريكا تدفع ثمن العشاء عن عشرة من السكارى، لكن فراوكا

أ.. رت على أن تكون البيرة من حصتها، وقبل أن نغادر بار العياش
كانت روديكا قد دفعت عني البقشيش.

لماذا إذن ـ وقد دفعن الحساب عني ـ كنت أضحك بين أصحابي مثل
.د محترم؟ لست أدري..

أدري أن سامي كان قد أخبرني ـ في الطريق إلى بيتي ـ وأنا أسند
رأسي عليه: أن حكاية هذا اليوم كانت أفضل مما نحكيه كل يوم، قال
لي: جميل أن نسمع منك بأسماء فراوكا وروديكا ولوريكا ونوتيسكا،
بعد ..نجرنا من أفخاذ المرمر وخصر العنبر، قال سامي:

ـ ينبغي يا صديقي أن نطور أكاذيبنا كل مساء مادام العالم كله
يتطور..

نظرت إلى سامي، رفعت رأسي بقوة، كنت أصحو من خمرة الظهيرة
والمساء. رحت أركض صوب بيتي، إلى غرفتي، إلى دولاب أوراقي،
كنت أريد أن أرى جواز السفر الذي عاش معي تسعة أعوام من الجنون
والغربة والنساء..

في اليوم التالي، لم أذهب إلى بار العياش، قررت أن أسافر إلى
روما والبندقية ومامايا وبراغ، من يدري، ربما أعثر على امرأة تسمى
نوتيسكا، أو حلم اسمه لوريكا، أو مغامرة أعطيها اسم روديكا، أو
شبح يمشي في الليل يرقص وأناديه:

فراوكا..

لكن ينبغي أولاً، أن يكون عندي جواز سفر: باسمي.

جزءٌ من غيمة

تأخر في حياتي كل شيء، بما في ذلك يوم ولادتي، إذ بقيت في بطن أمي تسعة أيام زيادة على مخاضها العسير الذي أوشك أن يقتلها، كما تأخر نمو جسدي برغم طول عصياني داخل أحشاء تلك العتمة الرهيبة، فها أنا، كما أبدو للناس وكأنني في السادسة من عمري، بينما تجاوزت العاشرة في حينها منذ شهور!

لم أنطق بأول كلمة حتى قطعت الثالثة من سنواتي بشهرين، والعجيب أن أول ما نطقت به كان (عبيبي).. ذلك أن حرف الحاء تأخر في حياتي، هو أيضاً، حتى الخامسة من عمري، ولم يفهم أبي لماذا بدأت الكلام بهذه المفردة التي لا تناسب أي طفل في الدنيا؟ ويبدو أن الشك انصب على براءة أمي التي رمى عليها يمين الطلاق دون ذنب سوى أنني قلت (عبيبي) ولم أقل بابا أو ماما!

أخذتني أمي معها إلى بيت جدّي، تبرأ مني ومنها أبي ولم أفهم حينها معنى الكلمة التي أنهى كلامه بها:

- لا أريد رؤيتك بعد هذا المساء ولا رؤية هذا اللقيط.

بعد خمسة أعوام على غيابي عن بيت أبي، فهمت معنى "لقيط" دون وعي مني ذهبت إلى أبي في حانة (طربوش) وقبل أن يستغرب زيارتي قلت له وهو يوشك أن يحتسي خمرته في صحة أصحابه الثلاثة:

ـ أمي أشرف منك مئات المرات، ومن العار أن ترجمها على خطأ لم تفعله أبداً.

وخرجت من حانة طربوش، لم أنتظر ما سوف يقوله أبي، بل تركته في حالة من الدهشة مازلت أتذكر ملامحه وهو يسمع ما أقول، لكن أمي التي أخبروها بما فعلت، جاءتني قبل نومي وهي تكرر بهدوء:

ـ ما كان عليك أن تفعل ما فعلت.

غفوت ليلتها على وجع عظيم يحفر في عظامي وأنا أفكر فيما قاله أبي يوم طلاق أمي، وشعرت أن شيئاً ناقصاً ومخزياً يأكل لحمي وحياتي.

* *

في إنكلترا، بعد أكثر من عشرين سنة على ما جرى، تمكنتُ من دراسة الطيران في مدينة (كارلايل).. كان أستاذي العجوز (مايكل فروست) يطبطب على ظهري بعد أن أعطاني شهادة الكفاءة يقول:

ـ أنت أفضل تلاميذ مدرسة الطيران.

ولم أفهم سرّ قوله:

ـ أنت تشبهني في أشياء كثيرة.

وفي الطائرة التي أعادتنا إلى بغداد، أخبرني حسام الذي درس الطيران معي، بأن مايكل فروست إنسان رائع مع أنه (لقيط) أخذته إحدى العائلات من أشهر كنائس لندن.

كدت أسقط جزعاً وأنا أتذكر قوله "أنت تشبهني في أشياء كثيرة" لكن الطائرة مرت بمطبات أكثر خطورة مما رحت أفكر فيه.

السماء مشطورة إلى جزئين، غيوم سوداء، وبياض كما الثلج،

والطائرة بين سواد وبياض تبدو وكأنها دون حراك بعد أن تجاوزنا إعوجاجها ومطباتها، أرى من النافذة الصغيرة ملامح جبّارة ترسمها الغيوم على هيئة حيتان وعفاريت وجبال شامخة حتى أصابني الرعب من ضآلة البشر حين بدت الأرض كلها كما لو أنها نقطة ماء في محيط لا نهاية له.

ـ لا أريد رؤيتكِ بعد هذا المساء ولا رؤية هذا اللقيط.

من يكون أبي وسط هذه السرمدية من الكون الهائل الذي تزدحم فيه المجرّات والنيازك واللاّمعقول؟ من أكون أنا وسط هذه الحيتان والعفاريت والجبال التي ترسمها الغيوم والسحب البيض العملاقة؟!

رأيت بين الغيوم وفراغاتها وتحركاتها البطيئة ما يشبه النمور والغزلان والدجاج، تتحرك بفعل الرياح إلى قطط وثعابين، بينما الدجاج يبقى على حاله تحت وابل من المطر الذي يتساقط في جزء من السماء وما من أثر له في الجزء الذي يليه، والطائرة تمشي بهدوء مريب، تمشي، ولا نشعر بطيرانها برغم ما يقوله الطيّار: إن سرعتها تزيد على ثلاثمائة كيلو متر في الساعة!

رأسي ساكنة وصماء، كما لو أنني أعوم في فراغ لا حدود له، مشطوب على كل شيء وأنا أحلّق بين هذه الربوع المهولة من أشكال الغيوم وديناصوراتها وسلعواتها وتماسيحها وطناطلها التي توشك أن تأخذني إلى بطونها.

الدنيا لم تعد البيت الذي كنت أسكن فيه ذات يوم ولا الزقاق ولا الشارع ولا المدينة ولا الأرض ولا الغابات ولا الجبال ولا كل ما عليها من أنهار وبحور ومحيطات، إنها شيء آخر أسقطني في حمّى من الخوف

والتساؤلات مع أن رأسي صماء وساكنة لا حراك فيها غير مخيّلة تسبح في فراغ مبهم غريب:

ـ أنت تشبهني في أشياء كثيرة.

ولا يهمني ما سمعته ولن ألتفت إلى معناه، فقد غرقتُ في السؤال الذي عشته منذ طفولتي: أين نهاية السماء؟ وماذا وراء هذا السديم الذي يبدو أطول من أي خيال وأبعد من أي سؤال؟

جسدي يهتز، مع أنني أسمع بعض الكلمات التي ينطق بها ركاب الطائرة، أهتز بقوة، بكثير من العنف، ولا أجد تفسيراً لما يقال، إنه شخص رائع، مع أنه لقيط أخذته إحدى العائلات من الكنيسة.

وماذا يعني ذلك؟ كيف أوازيه بهذا السديم الضبابي الذي لا قرار له؟ وإن كان ثمة أب لهذا الطيار، ماذا تراه سيفعل تحت سقف هذه السماوات الممتدة صوب العجب، وماذا يمكنه أن يفعل أو يضيف؟!

فجأة، بين تلك الغيوم وجزئياتها وتراكيبها التي تتغير لحظة بعد أخرى، رأيت أبي، لكنه أكبر حجماً مما كان عليه في الأرض، سمعته يكرر: لا أريد رؤية هذا اللقيط.

ولم ألتفت إلى قوله، لم أشعر بأيما وجع في عظامي، إذ سرعان ما تغيّر شكله وتناثر بين فراغات السحب العملاقة التي جرجرته إلى مكان بعيد.

* *

تأخر في حياتي كل شيء، حتى ركبت أول طائرة أخذتني إلى السماء، ومنذ أول مرة رأيت فيها المسافة بيني وبين الأرض لم أعد أفكر في جسدي النحيف، ولم أعد أتذكر ما قاله أبي.

نيسان ٢٠٠٤

كل ما أملكه الآن
هو أنني رأيت

الساعة التاسعة، قائد الجيش، أوراق جرائد، شاكيرا ترقص، نشيد البحر، سجائر رخيصة جداً، مطعم توتو، رياض أحمد، شاي بالحليب، مذكرات هيرمان هسه، ليلة القدر، ساعة نحس، عبد الحليم حافظ، القولون، أبو الريش، حفرة في الأرض، خمس نساء بثياب شفافة، عراق الأمير، وغرفة انفرادية تحت الأرض!

في التاسعة ليلاً، وربما هي التاسعة فجراً، لا فرق، ذلك أن الوقت مرهون مع افتراضاتك وحدك، أخبروك أن قائد الجيش سيأتي لتفتيش المكان حتى يكتب تقريره "عنكم" أنتم المهملون هناك تحت الأرض، أخفيتم الجرائد التي تبللّت بالدموع لئلا يراها كاتب التقارير ويكتشف أنكم ـ وبلا حياء ـ مزقتم صورة الزعيم، أجل، لم يعد في الجرائد غير صورة شاكيرا وهي ترقص على أنغم البوب عساها تنقذكم من الريبة والشكوك، منذ كم من الشهور وأنتم هنا في أسفل طبقات التراب؟ هل من أحد يصغي إلى نشيد البحر، إلى أغنيات الجبل، كيف تراكم صبرتم

كل هذه السنوات مع أرخص أنواع السجائر وأرخص الشتائم مع أنكم يوماً ما كنت أسياد المدينة وأبرز شخصياتها وأغنى وأحلى زبائن مطعم "التوتو"؟ ماذا حل بكم حقاً؟

ـ ماذا حلّ بي؟

لقد تبرأت منكم وحيدة خليل ورياض أحمد وزهور حسين، وما من أحد يصغي إليكم بعد هذا اليوم، ألا تخجلون من أنفسكم؟

ـ نحن تحت أجهزة التعذيب، وما نلمسه ونراه (منهم) أكبر من صبرنا عليه.

اشربوا الشاي بالحليب، أو اشربوا البرتقال والمانجا.. اشربوا الخمرة أو ما تشاؤون، المهم هو البقاء على قيد الحياة، لا نريد أن نراكم بهذا الحال الجرذوي الذي يثير الرثاء والقرف.. يا ناس عيب، هذا الذي أنتم فيه محض ذل ليس من ذل بعده.

* *

في آخر الليل، أتذكر ما قرأته في مذكرات "هيرمان هسه" لم يكن بطلاً، لكنه تجاوز العائلة والبيت والتقاليد والمدينة، وأنا مثل أرنب يقطع المسافات بانتظار ليلة القدر التي ينقذ فيها نفسه من جحيم (هم)!

هي ساعة نحس وخوف، ساعة رعب لا نهاية لعقاربها، مع أن عبد الحليم حافظ ما يزال يغني برغم موته، وأنا أتمتع بصوته الذي رحل كما الغيوم، دعني أمتطي الجروح التي نزفت وأقول: أنا بطل العالم، مع أن القولون يوجعني منذ عامين وأنا أضحك في حضرة الأصدقاء.. أضحك بين شراشف النساء، أضحك أمام صورة الزعيم وأقول له:

ـ ماذا فعلت بنفسك يا سيدي؟ كانت الدنيا ملك يديك، فكيف خسرت الأول والتالي في غمضة عين؟

ثم،

اكتشفتُ اللعبة التي خسرت فيها نصف أموالي ونصف حياتي وأنا أجلس في مقبرة "أبو الريش" الذي قال لي دون أن يأبه بما أفكر فيه:

ـ تمتع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشيّة من عرارِ.

حدائق من إسفلت، والحكماء كما الدببة في القطب الشمالي، يُوشكون على الانقراض، لماذا نحيا ـ هم يتساءلون ـ إذا كان الموت سيأتي في الحالات كلها؟ محض حفرة في الأرض أقلّ من مترين وينتهي كل شيء.. كل واحد سيختار حفرته التي يريد، ولا بطولات بعد اليوم، الحياة مجرد زيارة مهما طالت السنين. فاحش الثراء أو فقير على رصيف، عظيم أو حقير، هيلاسي لاسي أو شحاذ في بولاق الدكرور، النهاية واحدة، لا شيء سوى جمجمة وعظام من الصعب جمعها إذا ما حلّ الطوفان، ربما أحببت خمس نساء طوال حياتك، سرير من التفاح وثياب شفافة من حرير باكستان، وأنت الإمبراطور الذي اخترق غرفة النوم دون منافس، الدنيا لك وحدك، زغاريد وغزل ونبيذ أحمر، ثم ماذا؟ تمتع بحياتك يا رجل، يمكنك الذهاب إلى (عراق الأمير) ألا تشتهي الباقلاء والبلوط وخرير الماء؟ ما عليك سوى أخذ الباص إلى وادي السير ومنه إلى بلدية مرج الحمام حيث يمتد العشب على مساحة أطول من أيام المنفى، خذ طعامك وسجائرك معك فما من أحد سيعطيك أي شيء هناك، وتذكر أن عراق الأمير مكان للنزهة وشمّ النسيم، فلا تخلط بالتسميات والصفات كما فعلت ذات يوم حين قلت بأنك تهوى أمير العراق، فما عاد من أمير هناك، تمتع من شميم عراق الأمير فما بعد العشية من عراقِ.

* *

الحمد لله، يبدو أنك مازلت بصحة جيدة، كيف تراك تمكنت من العيش في هذا الجب العفن سنة من حياتك؟ أعرف من مات (هنا) بعد نصف عام وربما أربعة شهور، فكيف استطعت البقاء في هذه المحنة أكثر من ثلاثمائة يوم وليلة؟ غرفة انفرادية تحت الأرض، لا صوت ولا نافذة ولا أحد غيرك، لا شيء سوى همس أو هسيس مرعوب يكرر آه ه ه ه عن ألم لا يفهمه البشر هناك فوق الأرض، كيف مرّ الوقت؟

لا أدري، شيء في الذاكرة يأتي لزيارتي، يحقن جلدي بالصبر ويمضي، وفي كل مرة أصرخ فيها من الجزع أراه يكرر زيارته ويحقن عظامي بصبر أعظم.

ـ البكاء هو اللذة الوحيدة المسموح بها هناك.

في التاسعة صباحاً، وأظنها التاسعة ليلاً، أخرجوني من العتمة، من ذاك السواد الرهيب الذي لا يشبه أي سواد، تركت خلفي قائد الجيش وجيش القائد وقلت:

ـ ما هكذا جئنا من بطون أمهاتنا، فما عاد من شيء بريء في الدنيا.

هاهي المجلات والصحف اليومية على حالها، مازالت تحكي عن أشياء عافها العقل والزمان ولم يعد من أحد يصدق ما فيها، لكنها محشوة لم تزل بأخبار شاكيرا واستنساخ الماعز وإعلانات عمرو دياب الذي لا يقاوم سحر الببسي كولا وكيف تصبح مليونيراً دون عناء وبلا موهبة أو إبداع.. كل شيء كما تركته قبل عام من السراديب وسحق العظام، ليس من أثر للبحر ولا حوريات القاع، لقد أخرسوا أمواج الماء لئلا نتمتع بنشيد البحر.

رحت أحتسي الشاي بالحليب في مقهى (عرب) ولحظتها قال لي رياض أحمد وهو داخل صندوق الراديو:

ـ هضيمة تحنن الشامت عليَّ وتشتمت بي، وجثير اكزازك بروحي وأكولن هاي حنّية.

أبكي معه وأنا أتمتع بسيجارتي، أنفث دخانها نحو الطيور التي تهاجر صوب أرض خالية من الرصاص والدم، أبكي بصوت سمعته العصافير والحباري وزبائن (عرب).. لم أعد ألتفت لمن يضحك من دموعي ورجولتي، لا أحد منهم يدري لذة البكاء هناك تحت الأرض.

تركت القراءة، أخذتُ المئات من الكتب إلى سوق السراي،أعطيتها إلى (مزاد الشطري) بسعر التراب، وقبل أن أقطع شارع المتنبي إلى نهايته رأيت أمين معلوف وغارسيا ماركيز و طه حسين وإيزابيل الليندي ومحمود درويش وجراهام جرين وفوزي كريم وأوسكار وايلد ونجيب محفوظ وآرنست همنغواي وتوفيق الحكيم وجيمس جويس وبابلو نيرودا وفرجينيا وولف والطيّب صالح وتوماس مان وهم يمسكون بي من ياقة قميصي، من ذيل بنطلوني، من معطفي، من ضميري، يسألون عما فعلته في تلك الساعة، ولماذا رميت بهم على قارعة الطريق، إذا بي أصرخ بهم: لا نفع منكم بعد اليوم (هذي بلاد رفعت فخذها راية) ولم يعد من أحد يقرأ فيها غير أخبار الهزائم والمغانم، وكل ما كتبتموه لا يوازي قطرة ماء في محيط الغرائب والجرائم والعجائب التي عشناها.. نحن بحاجة إلى ليلة قدر تمسح هذا الخراب المهول.

ثم مشيت، لا أدري ماذا أفعل حينها غير أن أمشي، من شارع الرشيد، إلى جسر الشهداء، إلى شارع حيفا، إلى كومة من الدموع

زاحمتني قرب محاكم الكرخ التي لا حاكم فيها، إلى مطعم توتو حيث أسياد المدينة يتسابقون على الطعام والبيرة والقتل، وفجأة، هكذا، دون نذير ولا براق ولا بساط ريح، وجدتُ نفسي في "عراق الأمير" يغازلني نسيم بارد وتحيطني أشجار البلوط.

لم أسأل نفسي متى أتيت وكيف تجاوزت الحدود ولماذا عراق الأمير، طرطشني ماء الينبوع، واحتسيتُ الراحة في ساعة وجد، هي أول مرة في حياتي أبكي عن فرح طافح وأمشي بين المروج دون أي إحساس بالتعب، لم أنظر كم الساعة ولا أريد رؤية الوقت الذي فات بين خرير الماء ونقيق الضفادع.. لا قائد الجيش هنا ولا أوراق الجرائد ولا شاكيرا، تذكرت فوراً أن القولون يمكن أن نعالجه بأعشاب الخندقوق ما دام النحس قد غادرني إلى حفرة مطمورة عليه، وأيقنت في تلك الساعة أن الحياة ليست سيئة دائماً.

وبرغم ذلك مازلت أبكي!

عمّان ٢٧ شباط ٢٠٠٤

الديك الذي اختفى!

لم أعد أسمع صياح الديك الذي يوقظني في السادسة من كل صباح، سألت العم حسّان وجارتي بهية وشلال بائع الخضروات، وما من خبر عن مصير الديك الذي سكت عن الصياح منذ خمسة أيام.

لا أدري على سطح أي بيت عاش ذاك الديك القوي الذي يوقظ الميت في قبره (كما تقول أختي أشواق) وكيف يمكن إعادته إلى مكانه أو شراء ديك آخر يقوم بتلك المهمة الثمينة؟

صرت أذهب متأخراً إلى وظيفتي، ولم تنفع الساعة التي تصرخ بي عند الصباح، شيء ما في جسدي ورأسي لا يستجيب للمنبهات أو صراخ الباعة، ربما أيقظني المؤذن مرة أو مرتين في الرابعة فجراً، لكنني أعود إلى النوم عساني أصحو ثانية في السادسة، أتهيأ بعدها للفطور ومصاعب الباص الذي يتأرجح في الشوارع مثل راقصة عجوز.

ولم ينفع معي أيّ حل بعد رحيل الديك، حتى أختي التي حاولت ترتيب ساعات نومها ويقظتها، لم تستطع إنقاذي من الفوضى التي حصلت بعد غياب الديك، وجاءني أول إنذار من المدير بعد أسبوعين من تكرار تأخري وانفلات الوقت من يدي، قال المدير: لم تكن هكذا أبداً يا جابر.. فماذا دهاك؟

قلت له: الديك يا سيدي، لا أدري ماذا حلّ به، لم أعد أسمع صوته، وهذا هو السبب الوحيد.

ربما ظنّ المدير أنني أمزح، فقد تركني وهو يحرك يديه استخفافاً بما أقول، ثم أشار بسبابته نحوي وهو يبتعد عني:

ـ نحن بحاجة إليك، فلا تفعلها ثانية يا جابر.

كابوس واحد أراه في كل ليلة، جسدي معلّق في الهواء وثمة من يجلدني، ثم يبدأ في كسر أصابعي، بعدها أنزل عارياً وقد أجلسوني بالقوة على مدفأة يلتهب نارها حتى يسيل لحم مؤخرتي، فأصحو هلعاً مرعوباً وأنا أصرخ: الرحمة يا إلهي.

وما من أحد يرحمني غير أختي أشواق التي تبتسم لي وهي تعيدني إلى فراشي.

* *

سألتُ ثانية عن الديك، أطرق أبواب المحلة، وأنا أنكسر خجلاً في كل مرة أبحث فيها عن صاحب الديك الذي اختفى.. والعجيب أن أكثرهم يقول: عن أيّ ديك جئت أسألهم؟

قلت لبائع الخضراوات:

ـ يا سيّد شلال، ألا يمكنك تحديد المكان الذي كنا نسمع منه صياح الديك؟

وأدهشني قوله:

ـ أنت تسألني عن شيء لا أعرفه، حتى أنني لم أخبرك في المرة السابقة بأنني لم أسمع ديكاً يصيح في هذا الزقاق!

بينما قالت جارتنا بهية:

ـ أنت رجل عاقل يا أستاذ جابر، وكلامك عن الديك يضحكني، الناس تموت من الجوع، ولو كان عندهم نصف دجاجة لما أبقوها حتى الآن.

ولم أجد الراحة إلاّ وأنا أسمع العم حسّان يخبرني بأنه كان يسمع صياح الديك فعلاً، لكنه لا يتذكر متى وأين، فقد تخلّت عنه الذاكرة منذ أن مات ابنه في الحرب!

وقبل أن يغادرني حسّان، تذكرت أن الحرب كانت قد انتهت منذ سنين، وأنا أحكي عن ديك غادرني صياحه منذ أسبوعين، فماذا جرى في هذه المحلة (التعبانة) حتى أسمع من أهلها كلاماً لا يربطه رابط ولا يعني بالنسبة لي غير خراب مؤكد!

لم يعد أمامي غير أختي أشواق، جئتها في أول المساء مهموماً تسحبني حيرتي وأسئلتي مثل خروف، وأنا أقول:

ـ يا أشواق، ما سمعته اليوم أربكني حقاً،بائع الخضراوات قال بأنه لم يسمع أي ديك يصيح، وجارتنا بهية توشك أن تقول بأني مجنون، والعم حسّان لا يتذكر أي شيء، وحتى المدير الذي أعمل تحت إمرته لا يريد أن يصدق أن غياب الديك هو سبب تأخري.. أكاد لا أصدق ما يدور حولي يا أشواق

يتكرر كابوسي في وضح النهار، جسدي علّقوه قرب سقف البيت وهناك من يضربني بالسوط، ثم يكسر أصابعي كما لو أنه يغازلني، إذا بي أهبط عارياً فوق مدفأة يستعر النار فيها، أصرخ مرعوباً (الرحمة أيها الربّ العظيم) بينما يسيل لحم مؤخرتي كما الزيت!

تبتسم أختي أشواق، ابتسامتها الرائعة التي لا تفارقها في أحلك ساعاتي وكوابيسي، وحدها من يخفّف النار والبؤس عني، قالت: اهدأ يا جابر، الحياة يمكنها أن تكون أفضل، وما عليكَ سوى الصبر.

في تلك الساعة، لا أدري من أين جاء ذاك الرجل الوسيم، ومتى دخل البيت، وعن أي شيء راح يهمس في أذنها وهي على مقربة مني؟ لم أسمع صوته، بل تناهى صوت أختي وهي تقول له:

ـ يبدو أنه فيما مضى، كان يعرف امرأة اسمها أشواق، هذا لا يزعجني، وأعتقد أيضاً أنه يحب صياح الديكة.

لم أفهم معنى كلامها، لكن الديك في اليوم التالي عاد إلى مكانه وبدأت أسمعه جيداً في السادسة من كل صباح، ولهذا لم أتأخر عن وظيفتي بعد ذاك الصباح، والمهم أن العم حسّان وجارتي بهية، وكذلك شلال بائع الخضراوات، تأكدوا بأنفسهم ـ وهم قرب سرير نومي ـ إنني كنت صادقاً عندما أخبرتهم عن الديك الذي اختفى، وعندها سألتني أشواق وأنا أتهيأ للذهاب إلى عملي: كيف حالك الآن؟

قلت لها بسرعة: أنا بخير، لقد رجع الديك.

وبرغم أنني ما أخبرتها أبداً بسرّ كوابيسي، إلاّ أنها قالت:

ـ لكنك مازلت بحاجة إلى شيء من الراحة، وعليك أن تبقى (معنا).. نحن ما نزال بحاجة إليك.

ثم امتزج كابوسي مع صوت الديك، ورأيت أختي أشواق تصفعني بقسوة وهي تغادرني.. ضربتني أختي الوحيدة، بينما الرجل الوسيم يضحك وهو يقول:

ـ لم ينفع معه كسر أصابعه، علينا أن نجرب شيئاً آخر مع هذا الصنف العنيد من البشر.

مددّت يدي إلى مؤخرتي، أتحسس لحمي، الرحمة أيها الربّ العظيم، وأيقنت في تلك اللحظة أن الديك ترك (المهنة) للدجاج، حاولت

الصياح على سطح البيت، لكنهم منعوني وهم يضحكون مني، والعجيب هو أن أختي أشواق هي التي جرجرتني إلى المدفأة التي استعر نارها، وهي التي تسألني بعد كل سوط ترميه على جسدي:

ـ ماذا تعرف أيضاً غير ما أخبرتنا به يا جابر؟

لم أقل أيّ شيء، رحل الديك في السادسة صباحاً ولم أعد أسمعه أبداً.

من زاويةٍ في شباك بيتِها، أراها ترمقني كلَ يوم وأنا أمضي صباحاً إلى عملي، وظهراً حين أعود، ثم تكرر ذلك في المساء حين أمضي إلى أصدقائي في مقهى "الشاهبندر" بل أتحسسُ ستائرَ نافذتها تتحرك وهي تُحدق بي ليلاً وقتَ رجوعي إلى داري، وكم تمنيتُ لو أنني أرى ملامحَها عن قرب، لكن رأسَها برغم المسافة بيني وبينَها يرزح تحت شعرٍ كثيفٍ أسود، أرى ذلك جيداً وأكادُ لولا حيائي أن أبعثَ بالسلام إليها، حركة من أصابعي أو انحناءة خفيفة من رأسي حتى تفهمَ بأنني أشاركُها إحساسَها، لكنَ أهلَ المحلة يزاحمون جلدي حتى توشك أجسادُهم أن تلتصقَ بي!

ليس من فرصةٍ لسلام أو انحناءةٍ في مكانٍ كهذا مزحوم بالناس حدّ أنك تشعرُ بروائح لحومِهم وهي تدخل أنفَك ليلَ نهار، ثم أن الزقاقَ الذي أسكنُه قد يثيرُ المتاعبَ إذا ما ترصّدني أحدُهم وأنا أُطيلُ النظرَ إلى واحدةٍ من بناتِ المحلة.

أشعر بالزهو وأنا أمشي قبالةَ شباكِها المفتوحِ سراً، أتحسسُ فحولتي وهي تحركُ الستائرَ شمالاً وشرقاً حتى تخبرَني باهتمامِها الذي يتزايد يوماً بعد يوم، مع أنني عاجزٌ تماماً عن تحريكِ أصابعي تحيةً لها.

في صباحِ يومٍ ماطر سقطت من أعلى دارِها ورقةٌ منزوعةٌ من إحدى المجلات المصورة، سرعان ما مددتُ يدي ورفعتُها عن الأرض، ثم رميتُها في جيبِ معطفي لئلا يراني أحدٌ من المارة، ظننتُ في أولِ وهلةٍ أنها رسالةٌ منها أو إشارةٌ إلى شيء ما أو موعدٌ في مكان، رحت أمشي بسرعةٍ، بينما حبّاتُ المطر تُسابقُني إلى مكانٍ خفيٍ أتمكن فيه من قراءةِ السرّ.

رأيتُ نفسي بعد خمسِ دقائقَ تحت فضاءٍ فارغٍ لا أحدَ معي غيرُ المطر الذي صار يسقط بغزارةٍ لاذعة، أخرجتُ الورقة من المعطف وقرأت فيها بعضَ أخبارِ المطربين ونجومِ السينما، سميرة سعيد أفضلُ فنانة في الشرق الأوسط، جورج وسوف يكرر اتفاقهُ مع روتانا، وكاثرين زيتا جونز تحققُ أحلامها بالزواج من مايكل دوغلاس بعد حبٍ عارم!

وأيقنت أنها تحلم بالزواج مني، وأن صبرَها دام أكثرَ مما يجب، إشارةٌ ليس من شكٍ فيها، فهذا الزواجُ بين كاثرين ودوغلاس بعد حبٍ هائجٍ عنيف لا معنى له غيرَ أن تخبرَني برغبتِها في الزواج مني!

* *

في لحظةٍ نشوةٍ لم أعشها من قبل، فكرتُ، بل قررتُ الاقترانَ بها، ورجعت فوراً إلى دارِنا، رأيت أختي أمام التلفزيون وهي توشك أن تبكي على فاتن حمامة التي ماتت في حادثٍ مؤسف تاركةً محمود ياسين تحت غطاءٍ سميكٍ من اللوعةِ والمرارةِ والحزن العميق، فأعطيتها فرصةَ أن ترى نهايةَ الفيلم، ثم اقتربتُ منها:

ـ اطمئني، فاتن حمامة لم تمتْ وسوف تظهر في فيلم آخر.

قالت أختي:

ـ يبدو أن المطرُ أعادك مبكراً إلى البيت.

فقلت لها وأنا أبتسم:

ـ إنه أحلى ما رأيتُ من مطر، لا سيما وأنني قررت الزواج.

قالت أختي دون مبالاة:

ـ ومن هي سعيدةُ الحظ التي قررت الزواجَ منها؟

أخبرتها عن البيت الذي تسكن فيه الإنسانةُ التي أحببتها، حكيت لها القصة منذ أول مرةٍ رأيتها وهي تباركني بنظراتِها، ثم أعطيت أختي خارطةَ المكان، البيت الأول بعد دكانِ البقال، شباكها عريض والستائرُ زرقاء وثمة شناشيلُ في منتصف الجدار.

قالت أختي:

ـ أنا لا أعرف أحداً من هذا البيت، هل تريد مني السؤال عنها؟

فقلتُ طبعاً، بل فوراً، وإذا ما تبلّلت ثيابُكِ سأشتري لكِ أفضلَ منها.

* *

وفعلاً، راحت أختي إلى ذاك البيت الفقير، وهي تحمل عني رغبتي في مصاهرة العائلة بأسرع ما يقترحونَه من وقت، ذاك هو اليوم الوحيد الذي هلهلت فيه الطيورُ على سطح دارنا، والنهار الوحيد الذي شممتُ فيه رائحةَ الخزامى والجوري..

بعد نصف ساعة، رأيتُ أختي وهي تمشي صوبَ دارنا، ربما كان الوقتُ ملفّعاً بالعفاريت، كيف تعود أختي بهذه السرعة، رأيتها تتهادى على طريقٍ مزروعٍ بالعاقول، كما لو أنها ترقص على جروحي وانتظاري، مستغرباً أنها رجعت بهذه السرعة، لابد أنهم رفضوني، لكن أختي تقتربُ مني ويزداد نبضُ قلبي هلعاً، وقبل أن تصلَ البيت صرختُ بها:

ـ ماذا جرى؟!

إذا بها تسألني بهدوء قاتل:

ـ هل كنت تعرفُها ؟

قلت لأختي بأنني حكيتُ لها القصة ولا شيءَ أكثر مما حكيت، فأنا لم أرها، لكن اهتمامَها المؤكدَ بي وانتظارَها ذهابي وإيابي طوالَ النهار وبعضاً من المساء والليل دفعني إلى اختيارها زوجةً لي، فماذا جرى؟

عادت أختي تسأل:

ـ ومن أخبرك أنها تنظر صوبكَ أنت وأنها تحبُك أيضاً؟

قلت: لا أحد، أكثرُ من عام ولّى وهي تنتظر خروجي من البيت وعودتي إليه، ثم بعثتْ بإشارةٍ لا ريب فيها قرأتُها في هذه القصاصة من المجلة، المهم، أخبريني بما جرى.

قالت:

ـ عندهم ابنةٌ واحدة تسكن الغرفةَ التي ستائرها زرقاء، وعمرُها تسعة عشر عاماً، وهي مهذبة فعلاً.. و.. جميلة.

كدت أصرخ فرحاً:

ـ يا لك من محظوظة، أنك رأيتيها قبلي.

قالت أختي وهي تجلس ثانيةً أمام التلفزيون:

ـ إنها هادئة ومحبوبة، لكنني لا أظنُها تحبك أنت ولا أظنُها كانت تعنيك أو تقصدُك أنت في ذهابِك أو رجوعِك إلى البيت..

قلت، وقد أصابني كلامُها بالمرارة:

ـ ربما لستُ بالوسامة التي ترجوها الصبايا في مثل عمرها، لكن، من هو المحظوظُ الذي كان أمرُه يَشغَلُ بالَها؟

لم تأبه أختي بما سمعته مني، لكنها قبل أن تفتحَ التلفزيون قالت دون مبالاةٍ أيضاً:

ـ لا أحد، هي لا تحبُ أحداً بعد، والذي ستحبه قد لا تراه مطلقاً، أنت تحيا في أوهامك الجميلة يا أخي.

وبرغم غبائي، أيقنت أن التي أحببتُها وتمنيت الزواجَ منها والتي طاردتني طوال عامٍ بنظراتِها لم تكن غيرَ فتاةٍ مهذبةٍ جميلةٍ محبوبة و.. عمياء منذُ ولادتِها.

٢٠٠٣ عمّان

تجاوزتُ الخمسين من العمر ولم يعد بإمكاني جمع عملين أو قُل مهنتين متناقضتين، إذ ليس من السهل أن تستمر في (القتل) والكتابة وأنت في أول سلالم الشيخوخة، وما عليك غير أن تختار المهنة التي تناسب هذه السن المزحومة باليأس والكآبة.

سأعترف بأنني قتلت عطوة الخباز، وسرحان الجبوري، وكانا أول وجبة في سلسلة الذبح التي عشتها أيام كنت في الثلاثين.. ثم استمرت حفلات الموت دون أيّ شعور بالذنب، وذاك أسوأ ما في أمري، أن أقتل نظيرة جاسم ومحسن بياع البلابل وحنان الريّس ـ أجمل مومس في زقاقنا ـ دون أن يرمش جفني أو ترتعش مفاصلي، بل كنت أقتل بدم بارد كأنني خرجت تواً من براد هائل!

أظنني اخترتُ الكتابة بعد كل ما جرى من طقوس المسالخ وتقاليد القتل، وأنا كاتب قصة يعرفني المئات في بغداد، سبق لي أن نشرت كتابي "قصص في سلة المهملات" أسخر فيه من سلطة المحررين في جرائدنا والذين يرمون بالقصص المحترمة إلى برميل الفضلات بينما ينشرون القصص التعبانة من أجل غاية في نفس يعقوب، مع أن يعقوب رضي الله عنه ما كان من غاية له غير كشف الحقيقة.

وكـتـابي الأول هذا، مـرّ مـرور الكرام ولم يحـفل به أحـد، ذلك أن (مافيـا) الصحافة أحرقته في تنّور نقابتهـا بحجة الحفاظ على البيئة من التلوث، فـما كـان مني غـير السفر إلى دمـشق لطبع كـتابي "قـصص غـير صالحة للنشر" طبعوه مرتين ولم تدخل نسخة واحدة منه إلى بغداد، وحين جاء به أحدهم سهـواً، أعـادوه بسـيـارته إلى الشـام عـقـاباً على رعـونـته وحمولته الممنوعة.

كتبت الكثير من القصص بعد قراري المؤكد "ممنوع القتل مهما كان السـبب" وشـعـرتُ بالراحـة وأنا أجلس على أرض غـرفـتي أقـرأ المجلات والصحف التي نشرت قصصي، لكن الليل ما يزال يجرجرني إلى الحانات ومواخير الفقراء الذين يسكرون من رائحة الخمرة، وبرغم ذلك لم تساورني الرغبة في القتل، بل تركت كأسي تتمايل بين أصابعي وأنا أزداد عطفاً على هؤلاء السكارى وهم يتساقطون عند باب الحانة كما الذباب.

أحزنني مصرع سرحان الجبوري، وأصابني ندم مفاجئ لم أشعر به ذات يوم، فهو مجرد كائن مهزوم تسرح به زوجته وتمرح، ترميه شمالاً إذا أرادت الشـمـال وكـراً، وتأخذه جنوباً إذا مـا أصـابهـا العطش إلى مـاء الجنوب، وليلة قتله قلت له "أنت لا تستحق الحياة يا سرحان وعليك أن تسامحني".

سألني بشيء من البلاهة:

ـ أسامحك على ماذا؟

بعدها لم يرني أبداً، فقد تسللت السكين إلى أعمق أحشاء القلب بينما راحت زوجته تضحك قرب جثته وهي تكرر: لم يكن رجلاً حتى أشعر بخسارته.

المهم، مضى زمن القتل ولن أعود إليه مهما حدث، صحيح أنهم يطاردون طمأنينتي وراحة بالي، لكن يكفيني أنني لن أتورط بعد اليوم في القتل حتى إذا جاءني من يريد قتلي!

صارت الكتابة الحياة وما فيها، أعيش على دنانير التقاعد، على مكافأة هنا تأتي من مجلة البشائر وأخرى تدخل في صندوق بريدي أصرفها بعد يوم واحد، نسيت قتلاي تماماً، لكن حنان الريس ترقص في بعض أحلامي وتقترب من رأسي وهي تحمل خنجراً ربما تقتلني في حلمٍ آخر.

كتبتُ ثلاث قصص في أقلّ من أسبوعين، أحدهم أخبرني: أن قصصي لا حرارة فيها وأنها لا تشبه ما كنت أكتبه منذ شهور، وفوراً تذكرت (عطوة الخباز) الذي رميته إلى النار مع الخبز والعجين حتى أفوز بزوجته العجمية فارعة الطول، والتي مازالت حتى اليوم تشتم الحكومة لأنها أحرقته عمداً بعد أن سمعته يغنّي "خلّي نشبع شوف منك قبل ما تشدّ الرحال"!

مازلت حتى اليوم أتمتع بالذهاب إلى دارها ليلاً، وقبل نشر القصة الثانية قال المشرف على شؤون القصة دون أن يلتفت نحوي:

ـ منذ أن مات عطوة الخباز وأنت تكتب عن خبز بلا عجين!

أعرف ذلك، لكنني آليتُ على نفسي أن أحيا دون قتل ولا بطش في عباد الله، حتى إذا خسرت آخر فلس أملكه، يكفي ما فعلته مع محسن بياع البلابل، كنت أقطع رقاب بلابله دون رحمة، حتى إذا ما اكتشف نهاية البلابل وهي مقطوعة الرقاب اهتز جذعه بقوة وصار يهذي بكلام موجع عرفنا فيما بعد أن لكل بلبل اسماً ينادى به حين راح يصرخ بين الرقاب المذبوحة:

ـ درياق، سلوان، عذّال، غاوي، زموع، شمام، عنادل، محبوب الروح..

وحين انتهى من ذكرها جميعاً سقط بينها و.. مات

* *

القصة الثالثة أخذتها لمجلة البشائر، تحكي عن صياد كفّ عن الركض وراء فريسته، تركها تمرح بين الفلّ والياسمين وعاد إلى بيته فرحاً بعد أن كفّ عن قتل الغزلان والحباري، صحيح أن زوجته سألته عما جاء به من طعام لأطفاله الخمسة، لكنه رفع رأسه بكبرياء وهو يقول: ليس بالقتل وحده يحيا الإنسان يا امرأة.. ونام ليلته سعيداً و... جائعاً.

فوجئتُ حقاً برئيس التحرير ـ وهو صديقي من أيام التلمذة في ثانوية اليرموك ـ حين قال:

ـ أعتقد أن الوقت قد أزف على التقاعد من الكتابة أيضاً، فما تكتبه يا صاحبي ليس غير كلام مضحك يستخف به حتى الصغار.

أوجعني كلامه، كدت أتقيأ جزعاً في غرفته، وتذكرتُ نظيرة جاسم التي ذبحتها في قرية "الصويرة" يوم أن قالت شيئاً كهذا برغم أنها ما كانت تعنيه حرفياً.

الآن،

أعرف أن ما سأفعله يشبه الجريمة، بل هو الجريمة نفسها، فقد صار من المؤكد طغيان القتل والحروب والفضائح والمذابح في كل قصة قصيرة يُراد لها النجاح.. لذلك عدتُ إلى كتاباتي التي أحبّها قرائي في بغداد، وصارت كل واحدة من قصصي تتشابك مع الدم والجروح والجماجم

والقبور والمكائد، وفي كل مرة أمعن فيها بقتل أبطالي أزداد مجداً.. أذبح النساء والعذارى وأكاد أسمع تصفيق الناس في الطرقات، حتى جاءني التلفزيون وهو (يرجو) لقائي في برنامج.. "الثقافة الآن".

دخلت هذا القفص الفضي وأنا لا أعرف ما سوف أقول، ذلك أن كتابة القصص (شيء) والحديث عنها أمام الجماهير شيء آخر، إذا بي أسمع مقدم البرنامج يحكي عني وعن قصصي "المستثناة عن المألوف" و"الطالعة من معطفي أنا" في إشارة جارحة إلى معطف غوغول، وكيف أنني تبوأت بكتاباتي منزلة لم يصل إليها عربي من قبل، مع أنني صراحة لم أفهم معنى "تبوأت" وكنت أظنها تعني شيئاً قبيحاً لا يقال في مكان محترم كهذا..

وبعد أن قال كل ما يعرفه عني، جاءني بسؤاله الأول وهو يبتسم أمام الكاميرا:

ـ أهلاً ومرحباً بك في ضيافة "الثقافة الآن" ونرجو أن نفهم السبب الذي أعادك إلى نمط كتاباتك القصصية السابقة.

ولم يترك لي فرصة أن أحكي، بل راح يربط السؤال بسؤال آخر:

ـ ذلك أن القراء كما تعلم يا أستاذ عاشوا مع أبطالك في قصص لا تنسى، وأنا شخصياً أتذكر عطوة الخباز وحنان الريّس ومحسن بياع البلابل.. فهل لك أن تخبرنا بحقيقة الأمر؟

كانت أضواء الصالة تدخل في كل جزء من مسامات جلدي، لم أعد أعرف ما سوف أقوله، استديو باذخ عجيب مزحوم إلى آخره بالنور مع أننا في التاسعة مساء والضباب خارج هذا المكان يملأ الشوارع والطرقات الفرعية، أسمع من يقول:

ـ أستاذ، كنت أسألكم عن هذا التغيير الذي طرأ فجأة على قصصك الأخيرة..

نظرتُ إليه، كان يبتسم، وأنا في حيرة من أمري، ثمة شيء يحدث، أنظر حولي، إذا بي أرى صورة "ناديا الجندي" في زاوية بعيدة عني، هناك حيث يستعدون لبرنامج آخر..

ـ نحن لا نريد سوى أن نعرف السبب الذي أعادك إلى هذا النوع من القصص.

وحينها نطق الحجر.. قلت له وأنا أبتسم أمام الكاميرا:

ـ الجمهور عاوز كده.

بداية ٢٠٠٤ عمّان

نعم، أدري أن ما جرى لم يكن ذنبك أنت، إن أكثر ما يبعث على الضحك والقرف بالنسبة للمرأة، هو أن تكون أقرب شبهاً بالرجل، لكن هذا لا يعني الموافقة على قتلها.

عفواً، لا أقصدك أنت طبعاً، أنت لا يمكن أن تفكر بالقتل، بل لا يمكن لأمثالك حتى قتل ذبابة. لا تهزأ مني (النساء لا يصبحن مساويات للرجال إلا عندما يقنعن بأن يصبحن ذوات صلعة، وعلى أن يفرحن بها إذا حققت لهن المساواة فعلاً).

هذا كلام سمعته من فيلسوف أحمق نسيت اسمه، لكن حاول أن تفهمني أيها العزيز، أنا مجرد محام ولا شأن لي بالحكم الذي يصدر ضدك، أنا محاميك أنت ومن حقي أن أعرف الحقيقة، حتى إذا كنت أنت القاتل، عليك أن تخبرني لأنني في الأحوال كلها سأدافع عنك، وقد قررت هذا مع نفسي، ليس لأنك أخو زوجتي، وليس لأنك صديقي، إنما المهنة علمتني أن أحتفظ بسر الوكيل حتى إن كان مجرماً وإلا خسرت مهنتي إلى الأبد.

* *

أنا محام منذ عشرين سنة، أنت تعرف طبعاً أن هناك آلاف المجرمين

والقتلة والمرتشين والسفلة والمهربين وأرباب السوق السوداء.. وأنا لست مسؤولاً عن زيادة عددهم طبعاً، إنهم يزدادون في كل مكان، وإذا ما دافعت عن واحد منهم، إنما أدافع عن لقمة العيش، أنا أريد البقاء في الحالة التي تعلمت العيش والبقاء فيها.. أن أشرب، وأقرأ، وأعتني بداري وزوجتي وأطفالي وأن تكون لي سيارة فارهة أفضل من هذه السيارة المعوجة..

هذا من حقي، وسوف أحافظ على هذا كله، المهم أن تكون مطمئناً وتعترف لي بالقصة، من بدايتها، وإذا وجدت فيها ثغرة ما، يمكن الدخول منها إلى براءتك، سوف تجد نفسك إن شاء الله مطلق السراح بعد أسبوع وربما أقل ـ صدقني ـ أن القاضي لن يصدق ما قلته لي في السابق، من أنك تحب النساء، وأنهن بالنسبة لك الحياة والسعادة والمطر، لأنك في نظر القاضي متهم بالقتل، وأنت بالمعنى الجنائي (قاتل).. لذلك أرجو أن تحكي عن السبب الذي دعاهم إلى التوهم بك واتهامك بالقتل.

صحيح أنهم لم يعثروا في البيت على أحد، وأنك كنت مسافراً إلى البصرة وأنهم لا يصدقون أسباب السفرة، رغم أدلة الدائرة والأمر الإداري الذي احتفظت بنسخة، منه، بل أنهم يزدادون شكاً حتى باحتفاظك بالنسخة الزائدة.. ولو كان القتيل رجلاً، ربما كانت الشكوك أضعف قوة، لكن القتيل عشيقة سابقة لك، وتستطيع رد أقوال المدعي العام الذي ردد مرتين: إن السبب في القتل هو أن العشيقة نفرت منك وهربت أكثر من مرة وأنك هددتها ثلاث مرات بالقتل، وأنها كما تدري اشتكت منك في مركز الشرطة، بالتحديد شرطة الباب المعظم، وقالت منذ عام واحد بأنك تريد لها الموت.

نعم، نعم، أنا معك أن النساء كالتفاح، إذا تلامسن فسدن بسرعة، ومازلت أذكر أنك اعتقدت يوماً بأنها امرأة شاذة وأنها تحب النساء، لكن هذا العذر غير ثابت، وحتى إن كان حقيقياً فهو غير مهم ولا تعاقب عليه النساء، كما أنه لن يغفر الجريمة إذا كنت أنت ـ لا سامح الله ـ من قتلها فعلاً..

إذن،

أرجوك أن تعترف لي ببعض ما ترى وما تعرف، ولا تجعلني أكرر بعض الكلمات السخيفة، أنت تدري طبعاً (أن الشاذة تصبح عشيقة للنساء، عندما ترى النساء، غير محبوبات كثيراً).. أنها تبادل الحب المعقول الصادق الذي لا يتوفر بسهولة، بحب كاذب موهوم، هذا غير مهم في قضية مثل قضيتك، التهمة هي القتل والمتهم فيها أنت فقط... لو كان هناك شخص آخر غيرك، ربما اختلف الأمر، لكن التهمة ملصوقة بك وحدك.

بك وحدك أيها العزيز.

* *

أعرف أن أمثالك من البشر، راغبون في اختصار المسافة إلى السنوات المقبلة، حتى ترى ماذا يكون شكل الدنيا، أنت نفسك من يقول بأنه يعشق أن يعلن في قلب بغداد عن حبه الذي يمشي عرياناً في الباب الشرقي.. وتعشق أن تخبرنا أن في واحدة من العمارات العالية المزحومة بالحب والخمر والنذالة ثمة أصدقاء لك، كل هذا نعرفه، حتى قناني الفودكا وعصير البصل وبقية أحلامك الصغيرة.

أنت نفسك، من يعشق أن يمد يديه إلى السنة المشهورة (٢٠٠٠)

فيراها تضحك من ماضيها المضحك.. عفواً، لم أفهم كلامك هذا، لكنني ـ مثلك ـ أحلم أن أمد يدي إلى أبعد من جسدي، إلى أبعد نقطة عن جسدي، أن أرى وجوه النساء طيباً دون أي تحجر ودون كذب، وأن أرى العيون هادئة طيبة. أحلم وأنا ابن القرن العشرين أن أرى كيف سينتهي هذا القرن المخبول!

أنت مرهق، أنا أعرف أنك متعب، لكن ماذا أفعل؟ المزعج في مهنة المحاماة ـ وأنا محام منذ عشرين سنة ـ هو أنه ينبغي لك أن تشرب حتى تحتمل الناس.. وعندما تسكر، في تلك الساعة، لا يعود هؤلاء البشر يحتملونك.

هل تذكر من قال كلاماً مثل هذا ؟

نعم، نعم، الفلاسفة منثورون في أرجاء العالم، أحاول أن تفهمني يا صديقي، افهمني أيها العزيز جداً، أنا أريد لك الخير وأنت تعرفني، أنا محام كما قلت لك، ولم أخسر أية قضية حتى الآن، لكنك للأسف، لا تتعاون معي ولا تريد أن تساعدني في شيء.

النكتة تقول: إن عليك أن لا تسخر أبداً من صديق بنكتة، ما لم تكن تلك النكتة أفضل من الصديق، نعم، هذا مثل معروف، لكنني لا أريد أن أرهق أعصابك بالنكات والثرثرة والمواعظ والأمثال، والكلمات المأثورة، فقد كنت هكذا طوال عمري، أعني كانت حياتي كلها مجرد نكتة، ولم أضحك من أحد على الإطلاق، لكنك تدفعني إلى الضحك منك.. إنك صامت دون سبب، وأنا وحدي من يتكلم منذ ساعة من الزمن لماذا ؟ لماذا لا تريد أن تعترف لي بأنك قاتل؟ قلت بأنني سأدافع

عنك وأمسح التهمة حتى إذا كان المقتول أخي أو ابني، أو زوجتي.. أنا أريد البراءة لك، والبراءة لا تأتي بالصمت.

البراءة لا تأتي بسهولة، إذا لم أجد جواباً أدخل منه، أرجوك، صدقني، أنا معك، لكنني لم أقف على متهم مثلك أنت، فأنت لست معي على الإطلاق، ومن هنا ستخسر الجولة حتى تجد نفسك تحت المشنقة، طبعاً، تحت المشنقة لا فوقها، لماذا تستغرب؟ ستجد نفسك تحت المشنقة لأنك لا تملك ولا دليل براءة واحد، بينما أدلة الجريمة كلها، إنما هي ضدك تماماً.

* *

أنا أتذكر صوتك البريء، وأنت تهمس في وجدانها، أتذكر كلماتك المعذبة وأنت تقول (هاأنت تضحكين يا صديقتي من نقاوة النهار، وتركضين بلهفة عمياء إلى حضن الليل، قلت لك يا سيدتي إنني لن أكون رقماً زائفاً ولن أكون اسماً بين مجموعة أسماء، ثم تضحكين من عيني، تقولين: لماذا أحب النهار، لماذا أحب إشارات الوقوف، وأضحك منك بدوري، فالنهار الذي تكرهين، يجعلك ضعيفة بين يدي، وإشارات الوقوف رغم حدتها، توقفك برهة من الزمن، توقف هذا الجسد البغيض الذي يجعل من أوهام الرجال هوية للسقوط والنكاية).

نعم، كنت أسمع كل ما تقول، وأعجب من كلماتك الغريبة، فهل كنت تدري أية امرأة كانت؟

ـ اضحكي ما شئت يا صديقتي، فأنا وحدي من يفهم سر عينيك، وحدي من يفهم حمرة الليل الذي تسقطين فيه عارية كالورد، اعترف يا وليتة أمري أن الحب الذي دمرني كان وهماً سقطت فيه رغم إيماني

بقوتي.. وأقول باعتراف لا رجوع عنه، أنني أصبحت رقماً ممسوخاً بين مجموعة أسماء، وأخبرك أيضاً بأنني تعبت من الليل وتعبت من نفسي.

* *

والله يا سيدي، أنا أعيش حالاتك نفسها، أنا محاميك، لكنك غيرتني من محام إلى متهم، من أين لي بهذا الكلام الذي كنت أحتاج إليه؟ من أنت؟ أخبرني أرجوك من أنت؟

على أية حال، إنك تذكرني بكلمة قرأتها لـ (صاري فاليد) تقول فيها، إنني أتمتع، إذن فأنا أحلم، إنني أتألم، إذن فأنا مازلت على قيد الحياة.

وأنت يا صديقي الطيب، لا ترى نفسك إلا في آلامك، اعذرني إذن، أنا لن أدافع عنك مادمت مصمماً على الصمت. والصمت في مثل هذه القضايا يعني بأنك القاتل، نعم أنت القاتل أنا واثق من هذا، ورغم تلك السلسلة من الثغرات بين المحكمة والحكام سأدافع عنك، سأترافع عنك حتى أحقق البراءة لك وأثبت لك جدارتي وحسن ظني.. أنا محام منذ عشرين سنة، لم أخسر أية قضية لا قديمة ولا جديدة، وتأكد أيضاً بأنني لن أخسر حتى هذه الدعوى الصعبة، رغم أنك صامت لا تريد أن تتكلم.

ماذا ينفعك اليوم أن تسكت أو تتمرغ في حضن الماضي؟ هاأنت تشاهد على أصابعك العشرة عدد الرجال الذين يمرحون على رموش عينيها، وهم يزدادون واحداً بعد الآخر، يزدادون كأنك لست على قيد الحياة، العالم يا صديقي بائس جداً ومضحك كما ترى. وأنت وحدك من اكتشف النهاية قبل أن تأتي، لماذا تنتظر؟ ماذا ينفعك الصمت؟ إنه مِشنقة ثانية تعطي رأسك تحتها، لماذا؟

أنا كنت مثلك يوماً من أيام عمري، كان العالم لي وحدي، تسللت إلى الملوك والسلاطين وقتلت منهم من قتلت، وهرب الباقون إلى صحراء الموت، وبقيت وحدي أسمع تصفيق الجماهير وأرى اسمي منقوشاً على جباه النساء والمعجبين. تمكنت أن أجعل العالم كله بين أصابعي.. كنت مثلك يوماً من أيام غبائي، أصنع أساطيري وأبيعها إلى البشر، حتى أرهقني في أوهامي وخيالاتي، وقررت أن أكون واقعياً ما بقي من عمري، وكما ترى يا صديقي كانت المحاماة هي المهنة الواقعية الوحيدة التي تناسب أمثالي. وهي كما لا تعلم، تناسب أمثالك أيضاً، فهي المهنة المزحومة بالمكر والخداع وابتزاز أموال المساكين والمخبولين.

ثم صحوت فجأة، صحوت من شعوذة عقلي، ورأيت نفسي في غرفة بائسة لا نجاة منها سوى المحاماة.. لم أفشل في أية قضية، حتى أصعب القضايا كانت بالنسبة لي مجرد تسلية عابرة.. وقضيتك أنت لن تكون أصعبها.. أنا أعرف القضاة، وهم أفضل أصدقائي، أفهم النظرة، وأرى أسرارهم على رموش العيون، وسوف استثمر هذه المعرفة في إنقاذك من الموت.

لكن أخبرني، قل أي شيء يساعدني على إنقاذك بسرعة فقد أرهقني عنادك هذا وأتعبني هذا الصمت الغبي..

* *

في آخر الليل،

خرج المحامي من البار، يهتز يميناً وشمالاً، يشهق غرباً ويزفر شرقاً، ما إن رأى أول حارس ليلي في الطريق حتى قال له:

ـ أنا محام منذ عشرين سنة، لم أخسر أية دعوى، وسوف أترافع

عنك حتى البراءة، نعم، أدري أن ما جرى لم يكن ذنبك أنت، أنت مجرد حارس مسكين، لكن القضاة لن يصدقوك بسهولة، اطمئن إنهم أصدقائي، وأنا لم أخسر أية قضية على الإطلاق، لكن أرجو أن تحكي ما تعرفه عن الجريمة منذ البداية حتى هذه الساعة، كن مطمئناً، أنا صديق لك في هذه المحنة والقضاة أفضل أصدقائي.

كان المحامي يدخل في الليل.. بطيئاً، متعباً، كان الليل يتسلل في داخله، ببطء، بينما، في الجانب الثاني من البار، كان هناك ما يزيد على تسع موائد فارغة.

كان الليل وحده يمشي بين الموائد، يغسلها بندى خفيف لم يشعر به عامل البار وهو يقفل الباب على ليل آخر.

ـ هذا هو بيت المجنون.

أسمعها كل يوم، ثم أدخل بيتي الصغير، البيت الذي لا يراه أحد من المارة، ذلك أنه تحت مستوى الأرض، الغرف الثلاث المزخرفة بالأرابسك والصالة المقطوعة إلى نصفين، والحمام الأزرق، والتلفزيون المعلّق عند زاوية في المطبخ، كلها هنا خارج أشعة الشمس، لا أبصر أيّ شخص يمر حول المكان ولا أسمع أذان الفجر أو العصر، ولا أرى من الطيور والكلاب إلاّ ما تعرضه الشاشة الصغيرة.

أربع سنوات من دراسة الهندسة المعمارية وعشرة أعوام من التجارب والقراءة والسفر إلى برلين وروما وبكين والقاهرة وأنا أبحث عن طراز مختلف من البيوت، حتى عثرتُ على (روزيتا ماكبرايد) في محطة قطار باريس وأنا في طريقي إلى مدينة (نيس)

أخذتني إلى بيتها الغرائبي العجيب، وقبل أن تفتح باب حديقتها سألتها: هل تسكنين بين الزهور في هذا البرد القارس؟ فقالت وهي تبتسم:

ـ لا تستعجل.

إذا بي أمشي خلفها وهي تنزل تحت الأرض على سلالم من خشب الأبنوس، ثم فتحت باباً فولاذياً وهي تفسح الطريق أمامي: تفضّل.

دخلتُ إلى صومعة الصمت، هدوء مريب، أثاث فرعوني مزحوم بالطنافس والريش والخيزران، نفرتيتي تجلس على عرش من جمر، ثلاثة أهرامات تشهق نحو السماء، ليل في جوف النهار، سألتني روزيتا ماكبرايد: هل أعجبك المأوى الذي أعيش فيه؟

بقيت في صميم الدهشة، أتحرك مثل طفل في مغارة، من أين جاءت بالجنائن المعلّقة وحصان طروادة وأبي الهول؟! أتعرّى من جلدي وأنا مازلت في قاع الدهشة، ثلاث سنوات حتى بدأت باستنساخ بيت يشبه بيتها تماماً، فقد أخذتُ منها خارطة البناء ومساحته، ورحت أعمل ليل نهار، حتى تحقق أول حلم طاردني منذ رأيتها في محطة القطار.

جاءتني بالنبيذ الإسباني اللاّذع وهي تسأل عني، من أكون وماذا أفعل في باريس، ومن أيّ بلاد أتيت؟ حتى إذا ما انتهت قنينة (السان غريه) أسقطتني في بحيرة من العسل وأنا أكرر في صحوي وخمرتي: كم أنا بحاجة إلى بيت كهذا حتى يهدأ رأسي من كلام الناس وأصوات الحمير وباعة النفط وأذان الظهيرة الذي طالما أيقظني من سحر القيلولة.

روزيتا ماكبرايد لم تكن مجرد امرأة جميلة شقراء في الأربعين، فقد أطربتني دون غناء، وأسكرتني قبل فتح زجاجة النبيذ، وقالت (هيت لك) دون أن تنطق بها، فما قلت معاذ الله طبعاً، بل رحلتُ إلى غصون المشمش وفرات النهدين وعطر البخور وشممتُ رائحة الرمان، تعلّمت على يديها كيف تكون الفحولة نوعاً من التقوى، وهاهي رائحة الرمان وغصون المشمش تتحرك في بيتي، فراشي هو نفسه الفراش الذي غفوتُ عليه في مأواها، الطنافس في الممرات والريش قرب دولاب الملابس والخيزران في كل زاوية من البيت، حتى (أبو الهول) جئت به من

أهرامات الجيزة وأسكنته نصف الصالة مع نفرتيتي التي شاركته عرشها فوق النار.

ما عاد من شيء ينقصني سوى هسيس (روزيتا ماكبرايد) وضحكتها ورعونتها حين تحكي لي بعض أسرارها في بيروت وبرشلونة، في أقبية الغجر وداخل كهوف الحشيشة والممنوعات، أحتاج إليها وهي ترقص على صوت فريد الأطرش الذي لم تسمع به، مع أنها تحتفظ بشريط يقول فيه: تعال سلّم.

* *

بيتي المنسوخ من مأوى (روزيتا) في مدينة نيس لا يشبه أي بيت في بغداد، وفي اليوم الذي جاءني فيه مختار المحلة يسألني عما إذا كنت أملك خارطة العقار وعليها ختم أمانة العاصمة، أعطيته ما يريد، وتأكد أن الدار لا غبار عليها من جهة القانون وليس من سهو أو التباس أو خطأ أو تجاوز أو خلل أو خرق في أي شرط أو أيّ أساس لها، وبرغم هذا أعطيته ألف دينار كما أراد!

أسمع الموسيقى، أغفو على شاعرية (موزارت) وأدنو من (فيفالدي)... أسقط فرحاً وأنا أكرر فصوله الأربعة، حتى يأتي الوقت الذي أصغي فيه إلى (براهمز) و(بيتهوفن) بعد منتصف الليل، أحسد نفسي على هدوئي وراحة البال التي أتمتع بها تحت سطح الكرة الأرضية، حيث لا أحد يدري بمكاني وما من بشريّ يسأل عني!

عاطلٌ بالوراثة، لا وريث لي غير أصابعي، أرسم بها خرائط العمارات، تباع في أسواق المباهاة بين رجال السياسة الكبار والتجار وباعة المخدرات، لا أحتاج إلى المال، لكن رسم البيوت والشوارع

والأسواق هي مهنتي، تزداد ثروتي وأنا داخل بيتي الصغير الذي أعطاني راحة أعصابي وحقق لي كل ما أبتغيه من عمل وإبداع واسترخاء.

ما فارقني أبداً وجه (روزيتا ماكبرايد) كم أتمنّى لو أنني بقيت هناك قرب يديها، أعانق الجسد الذي احتواني في أصعب ساعات رجولتي ووهبني ما أبتغيه من نشوة وحب وتقوى!

جاء مهندس أملاك الدولة، وأخبرني أن المكان الذي يشغله بيتي سيكون من نصيب الحكومة، ثمة مشروع عاجل لمرور المركبات داخل هذا الشريط "وأشار إلى مساحة شاسعة تبدأ من جدارية عالية قرب المطار وتنتهي وراء منزلي بمسافة لم أستطع حساب أمتارها البعيدة".

لم أقل أي شيء، أعرف أن ما سوف أقوله أو أعترض عليه سيأخذني إلى خسارة مزدوجة، بيتي وحياتي معاً، سألته في أيّ وقت سيبدأ هذا المشروع العاجل، فقال: بعد عام أو أقل، لكنك لن تحتاج إلى أكثر من شهر واحد حتى تجد بيتاً أفضل وأجمل من هذا، وأخبرني أن تعويضي سيكون مجزياً وأكبر مما أظن!

لم أقل لمهندس أملاك الدولة، ماذا يعني هذا المكان بالنسبة لي، ومن أين له اكتشاف لوعتي واحتراقي وأنا أغادره؟ كيف له أن يفهم ما تعنيه السنوات الثلاث التي اشتغلتُ فيها ليل نهار وأنا أرفع التراب والطين والحجارة وأصنع الحلم الوحيد تحت نور القمر؟ وإذا ما صنعت الحلم ثانية وبدأتُ بزخرفة الذكريات ونمنمة الممرات والصالة وغرفة الموسيقى، من يضمن لي ألا يأتيني مختار المحلة يسأل عن خارطة العقار وختم أمانة العاصمة؟ وإذا ما تمّ كل شيء بسلام وأمان، ماذا

سأفعل إذا ما عاد مهندس أملاك الدولة وأخبرني أن مشروعاً آخر لسكة القطار أو حديقة الحيوان أو معتقلاً للمخربين سيبنى في مكان بيتي؟

هل سيحتمل الرأس شيئاً كهذا؟ أبداً، وما حاجتي أصلاً لبيت ليس سوى (بيت مجنون) كما يقولون عنه؟

ـ خذ تعويضك أيها المهندس المخبول و.. توكّل، فالعمر لا يتكرر مرتين..

* *

كان جواز سفري قرب وسادتي، ملتصقاً بمحمود درويش وهو يسألني: لماذا تركتَ الحصان وحيداً؟ غفوتُ بين رمسيس الثاني ونفرتيتي على طنافس من وجع الذاكرة وريش اللهاث:

ـ هل أعجبك المأوى الذي أعيش فيه؟

قلت لها: إنه بيت مجانين يا روزيتا.

لكنها تقول: وهل ثمة من هو أسعد حالاً من شخص مجنون؟

لم أشعر بالندم، وما جاءني الحنين، حتى أنني لم أنتظر تعويض بيتي الذي قتلوه.. من العيب أن تباع الجنة بحفنة من الدنانير.

عمّان ٢٠٠٢/١١/٢٧

لا أحد خارج البيت من العائلة غير حبة الفلفل اللاذعة، لكن الطرق على الباب لم ينقطع، الساعة تسللت نحو الثانية بعد منتصف الليل والكل نيام، الطرق على باب البيت الخشبي العتيق لم ينقطع أبداً.

ذئاب تعوي على امتداد الغابات، والبكاء الذي جمعته النسوة في بيوت الشهداء يكفي خمسة أعوام بلا دموع.

استيقظ الأب العجوز (من تراه يجيء في وقت كهذا)؟ نزل السلالم بأعوامه السبعين وهو يقرأ آية (الكرسي) مرعوباً من ذاك الطرق الذي ما انقطع مطلقاً طوال نصف ساعة من الزمن.. قال الأب وهو يقترب من الباب:

ـ من الطارق؟

وما من جواب، لكن الطرق ما يزال، ثمة حال غرائبي لا يفسّر.. كرر العجوز:

ـ من تكون؟ من يطرق الباب؟

وما من صوت وراء الخشب السميك، هادئة ممرات الزقاق، لا أحد يأتي في وقت كهذا وليس من سبب يرغمنا على الصحو مهما جرى عبر تلك المحلة الفقيرة المهملة.. حبة الفلفل هو الغائب الوحيد، والحرب

مازالت هناك قرب البراكين، راح الأب الشيخ يصعد السلالم نحو غرفة ابنه الخالية، سيرى من خلال النافذة ذاك الشبح الذي يطرق الباب في وقت كهذا.. الشناشيل خارج حدود المكان، ومن وراء الأحمر والماروني الأصفر والأبيض يتمكن من اكتشاف الطارق، لكنه ما إن دخل الغرفة حتى أصابه الجزع من تلك الذكرى "يوم بدأت القنابل بالسقوط، يوم تحرك الجيش ثانية إلى هناك وبينهم حبة الفلفل، ابنه الوحيد ".. كم دعاء، وكم زيارة إلى بيوت الله، كم صلاة في أضرحة الأولياء، كم أعطى للفقراء حتى يجيء هذا الولد بعد سبع بنات؟

رفع السنوات فوق عنقه وصار يمشي صوب النافذة الضيقة المتموجة بألوان قوس قزح، ومن خلفها رأى الشخص الذي يطرق باب البيت الخشبي، من الطبقة العلوية راح الأب العجوز يصرخ:

ـ يا أنتَ، يا هذا، ماذا تريد؟ نحن بعد منتصف الليل.

نظر إليه الطارق، ثم أنزل عينيه، هل كان يبكي؟ لكنه ثانية راح ينظر إلى الشيخ العجوز وأشار إلى (تابوت) خشبي وراء العتمة، ثم تحرك خطوة واحدة إلى الوراء، زاحمته الدموع وهو يركع على الأرض:

ـ أنا يا سيدي في مهمة عسيرة جداً، ليرحم الله الشهيد، اعذروني بارك الله فيكم فلا أحد غيري يعرف العنوان، فقد كان يرحمه الله صديقي منذ طفولتي، أنا محمود ابن منيرة.

ثم ابتعد بسرعة، ولم يره أحد بعد ذلك اليوم، بقي التابوت خارج البيت، الساعة لا تشير إلى أي شيء، ربما انطبق الجزء الخفي من الأرض على الجزء المكشوف منها وانطمرت غصون الأشجار تحت براكين من لهب وجنون:

ـ ماذا فعلتَ بي يا محمود ؟

* *

تحرك طابور من السفن العملاقة، تحرك جيش من الببغاوات نحو الحروب، تحرك النخيل صوب البيوت، ولم يتحرك الأب العجوز، ما فتئ ينظر إلى ذاك التابوت المغلق "لا يمكن أن يموت" فهو الولد الوحيد بعد سبع بنات، لا يمكن أن تختفي حبّة الفلفل من طعام البيت".

على مهلك أيها الخطأ القادم من وراء الحدود، لا أحد يموت بهذه السرعة، الماء سينهمر على الطرقات، والحياة لم تزل جميلة ساحرة، غداً يذهب الصغار إلى المدرسة، سوف يكبرون دون ريب، الموت ليس مجرد كلمة، الموت نهاية، والحدود بين هذا الحزام وذاك الجزع مجرد لعبة وقحة، علينا أن نفهم السبب الأول في موت هذا واحتراق ذاك، لا يمكن السكوت على الجريمة إذا كان الذبيح يعرف اسم القاتل.

كان الأب العجوز يصغي إلى الريح، أول ريح لا يعرف من أين تجيء، فهي تصعد به، يكاد يسقط، ثم ترفعه عن الأرض، يوشك أن يطير.. أية ريح همجية تسرح به، لا أحد خارج البيت من العائلة غير المحارب الذي راح إلى الجبهة منذ أسبوعين، قطع الإجازة وقال "هناك صديق أراد مني الرجوع مبكراً حتى يمضي إلى الزواج من ابنة عمه"..

هلاهل في بيت المحنة، والمقاتل الذي قطع الوقت من أجل ذلك الصديق أخذته الشظايا إلى ساحل الموت.. هكذا كانت الحروب دائماً، محض صواب على شوارع الخطأ، أو مجرد سهو على زقاق الصواب.

تعالي أيتها الريح، خذي بيدي، أيقظيني، الشظايا حولي والماء أمنية في تلك الصحراء، من العيب أن نبكي، يقولون: إن الرجال تبكي

بصمت، لكنني الليلة سأبكي بقوة وأقول: "كفى كل هذا الذي جرى، عيب، الساعة لا تشبه يوم القيامة، لكن القيامة قامت وعلينا الرجوع إلى أنفسنا لحظة واحدة عسانا نكتشف البلوى بين هذه الرمضاء التي لا يستجير بها سوى البلهاء".

التابوت لم يزل عند باب البيت "ولدي الوحيد بعد سبع بنات" والتحرك نحو ذاك الخشب المحشو بالمسامير حالة من حالات المعجزة، لا أحد الآن يطرق باب البيت، ذهب (البشير) بما قيل له وعاف الدموع تنزل كيفما تشاء، الأب العجوز يمكنه إيقاظ العائلة كلها، لكنه فتح الباب، نظر إلى الخشب المستطيل (هناك حيث ينام المحارب).. جاء بثلاثة من "الجدعان" ومضى بهم (وبه) نحو المقبرة، في الثالثة والنصف بعد منتصف الليل، وانتظر ثمة حتى الفجر.

* *

حبة شوق، تربة طيبة، وداعاً أيها البطل، أنت بالنسبة للبيت مازلت في الحرب، وحتى تنتهي القنابل سأبحث عن عذر آخر، صديقك محمود بن منيرة لم يقل أي شيء، بارك الله فيه، يكفي أنه جاء بك، ترى ماذا قلت له قبل موتك يا بني؟ أيها الجميل، ماذا تراك قلت قبل ذهابك السريع هذا؟ كل واحد يموت له (كلمة) لا تنساها النفوس أبداً، فماذا قال حبة الفلفل قبل أن تهبط الشظايا على جسمه النحيل؟

غسلوا جسد الشهيد "الشهداء ليسوا بحاجة إلى الماء، إنهم عبق الرحمن ورائحة الجنة".. لكن الأب الشيخ يطمئن الساعة إلى نظافة ابنه الوحيد من وعثاء السفر.

يتعطّر بماء التفاح والسوسن والبخور، كمية حرمل تفوح، والقبر

مفتوح في الخامسة قرب الصباح، قرأ "الفاتحة" عشر مرات، شاركه الجدعان ثلاث مرات في تلاوة آيات من سورة (طه) وهم ينظرون إلى السماء تارة وإلى الشهيد معاً، ينتظرون أجورهم.

* *

نزل القبر في السادسة، أنزلوه برفق، الشهداء يلتذون بطعم الحياة، لهذا تأخر التابوت في النزول إلى التربة، الأب العجوز كفّ عن البكاء وهو يعطي الأرض أحلى ما كان في شيخوخته، نزل القبر مع الشهيد، قال بصوت مسموع قبل أن ينهمر التراب:

ـ أوصيكَ يا ولدي أن تذكر الحقيقة (لهم).. قل لهم ما جرى واطمئن أيها العزيز إن الدنيا لم تعد ملك يديك وليس من أحد سيأتي إليك إذا ما ذكرت الحقيقة، أوصيك بالرحمن أن تكون شجاعاً كما كنت فعلاً، وقل لهم كل شيء.

غادر الشيخ العجوز المقبرة العتيقة الشاسعة، راح ينظر إلى القبور تمتد وتمتد وتمتد، كلها تحمل في طياتها جسد الولد الوحيد بعد سبع بنات، كلها تخفي حبة فلفل لاذعة كانت في بيته ذات يوم.. ولم يخبرهم في البيت عما جرى، ذلك أن الشهيد كما يعلمون لم يزل يحارب نيابة عن صديق يتزوج؟

فقال أنا من حزب الصفوة خلاصة التجربة الإنسانية والمثال الصارم الوحيد لكل من أراد الحق وإنقاذ البشرية.

وبما أنني أخاف الصفات المهولة والشعارات المجنزرة، فقد هربت بجلدي وقد أوشك لحمي أن يتهرأ خوفاً، فأنا من بلد محكوم بالخوف وأول ما يفعله حاكمنا أنه يقطع اللسان عند أول زلة!

راح يضحك مني وهو يراني أهرب من بين يديه إلى حيث لا يدري ولا أدري إلى أين، أسمعه يصرخ بي:

ـ الدين هو النصيحة، وأنت لا دين لك ولا تستحق النصيحة.

قلت له في سرّي "أنا ما تشاء ولكن دعني وشأني فقد رحل اليقين عني وصارت حياتي مجرد ريبة وشكوك ورعب".

رأيت كلبي عند باب البيت يلهث عن جوع دام أكثر من يومين، يهزّ ذيله ويوشك أن يبكي (ترى هل تبكي الكلاب عند إحساسها بالجوع)؟ فما كان مني غير أنني أخذته إلى صدري وأعطيته طعامي وتركته ينام على فراشي وأنا أتذكر بعض ما قاله عميل حزب الصفوة الذي عاد في واحد من كوابيسي وهو يستخف من ضعفي:

---

(١) هذه القصة من نسج الخيال حتماً ، لكنها حدثت .

ـ نحن ندرّب أعضاء الحزب على تحمل الأذى مهما كانت قسوة النظام، أما أمثالك فلا مكان لهم في حياتنا، ذلك أن شخصاً مثلك ليس سوى دمية من الخيوط نضحك عليها ونرفضها بالثلاث.

قلت له: أنا يا سيدي مرفوض بالثلاث من نفسي ولا أريد منكم سوى إهمالي وشطب اسمي من بطولاتكم العظيمة.

قال: هل تراك تسخر منا؟

فما كان مني غير أن أشبك أصابعي حول رأسي وأعتذر عشرات المرات عن شيء لم أفعله أبداً..

شبعتُ من خطاباته وأقواله المأثورة ومن حروبه التي مزق بها ثيابي وصبري، قال وهو يشير إلى أنفي:

ـ تأكد أن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة.

فقلت له وأنا حريص على دغدغة إحساسه المرهف:

ـ نعم، أعرف أن هذا شعار حزب الصفوة، لكنه القول الذي جاء به الإمام عليّ منذ مئات السنين، أما كان ينبغي عليكم عدم إحراق الدين في جعبة السياسة؟

في تلك الساعة من زمن العجائب أيقنتُ أن الموت صار قاب قوسين مني وأنا أسمعه يكرر:

ـ لعنة الله عليك، إياك أن تذكر أن شعارنا العظيم هذا جاءنا من نبيّ أو شيخ أو كتاب، نحن نصنع أفكارنا دون حاجة منا إلى أحد، وإذا كان شعارنا من نسيج فكرة سابقة فنحن نعرف أن المفردات يمكنها أن تتكرر في كل زمان ومكان.

وبما أنني مجبول على الرعب والمهانة فقد أخبرته بأنني أخطأتُ

التفسير وأن الإمام عليّ لم يقل كلاماً كهذا ولكن تهيأ لي.. إذا به يبتسم ويطبطب على كتفي وهو يمشي هادئاً حول مكاني:

ـ من المؤكد أنه ليس هناك من شيء مؤكد، أنا أفهمك وأفهم الحال الذي أنت عليه، ولهذا سأغفر لك ما تقول.

نظرتُ إليه وأنا أسأل نفسي: من أين جاء هذا الخوف كله إلى جسدي؟ من يكون هذا الرجل حتى أهابه حدّ التبول على نفسي؟ لماذا لا أقول رأيي فيه وفي حزبه وأشعل الحرائق في خشب الأكاذيب التي أسمعها وأنتهي بعدها من رعبي مهما كان الثمن الذي سيأتي إثر ذلك؟!

أعرف أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، لكن حقوقي أقبروها منذ زمان بعيد، وإذا كان صاحب الحق سلطان زمانه فأنا لا زمان لي حتى أكون سلطاناً عليه، أنا لست أكثر من أرنب يركض مرعوباً بين شعاب الغابة وغزال أعرج يعرف أن الرصاصة ستمضي إلى داخل أمعائه وتقضي عليه، من أكون حتى أقف لحظة واحدة أمام حزب الصفوة وأنا متأكد أن العدل لم يعد أساساً للمُلك في هذه البلاد التي ذهبت إلى مصيرها المعتم وهي تدري أن العتمة أقلّ خساراتها!

* *

أنا خائف جداً، والسكوت هو السلامة، وأعلم أن حصتي في الحرية أصغر بكثير من حصتي مع العبودية، وبرغم ذلك تمكنت من النجاة منهم طوال عشرة أعوام مضت، لكن مسؤول حزب الصفوة قرر فوراً أن أكون منهم وبينهم، فقلت له إن العقل هو روح الحرية وإنني لا أفكر بالانتماء إلى أيّ حزب في الأرض، إذا به يقول:

ـ أنت لا تملك القرار، وتذكر أن الحرية ليست من نصيب العبيد.

وهنا، رأيت المسدس قرب رأسي، أسمع صوته كما الصدى يأتي من مكان سحيق "الحرية ليست من نصيب العبيد" ثم قال مثل ديك منفوش وقد أخرج مسبحة سوداء من معطفه الزيتوني:

ـ أنت لا تحبنا، لكن المئات ممن رفضونا يتبرعون اليوم بالموت من أجل أن نبقى، وتذكر أن قتلك لا يستحق حتى التفكير به.

قلت له وأن أطيل النظر إلى معطفه الفاخر ومسبحته العقيق الثمينة ورذاذ فمه الذي تطاير حولي:

ـ الطاعة يا سيدي مهنة شاقة، أنا أعرف ذلك، كما أعرف أن الرأفة بالمظلوم هي أناقة بالنسبة للطغاة.

صرخ بي وهو يوشك أن يضربني:

ـ يا لك من سافل.

رميتُ بنفسي إلى بحر يتلاطم فيه الموج وأنا أقول له:

ـ وهل أنتم بحاجة إلى سافل في صفوف حزبكم؟

أجابني وقد عاد الهدوء إليه دونما سبب معقول: القائد حفظه الله ورعاه وبارك في خطاه أخبرنا أكثر من مرة أن الرعاع والغوغاء والسفلة هم أفضل من نحتاج إليهم في حماية الأمن والبلاد، ولهذا لا أفكر شخصياً في أن أخسرك.

خبأت الجمرات تحت جلدي وأنا أسأل حزب الصفوة:

ـ وهل تراني من الرعاع والسفلة والغوغاء؟

أجابني بسرعة ودون أن يفكر فيما يقول:

ـ كلكم رعاع وأبناء قحبة وتستحقون الموت، لكن من الصعب أن نتخلص منكم جميعاً، نحن أيضاً بحاجة إلى (بشر) حتى تستمر الحياة والقوانين.

سألته بهدوء قاتل:

ـ أنت على حق فيما تقول، ولكن الغوغاء والسفلة وأولاد القحبة يفكرون أيضاً بالمكاسب والمكرمات حتى يستمر عطاؤهم، فماذا لو أنهم ذات ساعة انقلبوا عليكم؟

كان يضحك مني، ضحك كثيراً وهو يلهث مثل كلبي الذي أعطيته طعامي:

ـ كل شيء محسوب بحساب، وقد أعطيتك ما يكفي من الوقت مع أنك لا تستحق غير ضربة فأس على رأسك الأرعن هذا.

فجأة، لا أدري كيف ومتى رفعتُ رأسي، تلك كانت أول مرة كما أتذكر أرفع فيها رأسي وأنا أقول بصوت عنيد لا خوف فيه:

ـ ترى هل يطارد الصقر الذباب؟ وهل يتأفف الأسد من البراغيث؟

كان المسدس يقترب من رأسي ومسؤول حزب الصفوة يسألني عما قلته قبل قليل، فما كان مني غير أن أقف بطولي وأنا أبتسم:

ـ هذا قول لا تعرفه دون شك، فقد نطق به رجل لم تسمع به وقد لا تفهم معناه مهما حاولت ذلك.

يبدو أنه أحس بما أفكر فيه، أنا أظنّ ذلك، فقد سمعتُ الرصاصة وهي تقترب!

من الذي كتب الرواية ؟!

آه ما أخبث الناس، لأنهم لا يحبونني بقدر
ما أحب نفسي، وعندهم من اللامبالاة
نحوي بقدر ما عندي من اللامبالاة نحوهم.
تريستان برنار

رفوف الكتب أعوج خشبها من ثقل ما تراكم عليها من مجلّدات وقواميس وروايات القرن التاسع عشر، وصار عليه أن يسندها بقطع من خشب سميك قبل أن يبدأ في روايته السابعة، التي قرر، قبل أن يبدأ الكتابة بها، أن تكون قنبلة الموسم بعد انفجرت رواياته الست بلا صوت وبلا صدى.

جلس في غرفته، لا أحد يدخل غرفة الكتابة، صومعة الأسرار، مختبر الحلّ والربط، خوفاً على جملة أفكار منسّقة على الدوام ضمن ترتيب الزمان والمكان، وإذا ما طارت حفنة من سطورها، صار عليه أن يعثر عليها من جديد بين آلاف السطور وعشرات الكتب التي تدور ضمن المحور نفسه، لاسيما وأنه لا يترك أيما خط أو إشارة أو دليل أو هامش أو حتى محض إحساس يكشف لعبته (البريئة)!

ذلك درس في وعي مخاطر المهنة، فقد انتبه إليه ذات يوم واحد من

رجال الفقه والشك والقراءة وقال عن روايته الثانية (إنها مجرد نسخة من قصة الزمّار العجوز التي كتبها فرانك ستوكتون قبل مائة عام).. لكنه تمكن أن يقول بشجاعة يحسد عليها فعلاً:

ـ إن مسألة كهذه ليست غير خواطر مشتركة تتشابه عند العباقرة من نوع ستوكتون ومن نوعه أيضاً.

أغلق الباب على نفسه، نظر إلى تولستوي، نجيب محفوظ، غارسيا ماركيز، فرانز كافكا، جورج سيمنون، وأحسّ أن هذه هي عائلته، وأن الدنيا إذا ما خلت من تشيخوف وفرجينيا وولف وهيرمان هسه وآندريه جيد ورسول حمزاتوف فهي مجرد أيام بلا معنى.

كان يصغي إلى (مونت كارلو) تذيع نبأ عن جائزة نوبل التي نالها "غونترغراس" وابتسم، إذ تذكر، أنهما معاً، هو وغونتر، ظهرا في جريدة اليوم، وأن صفحة الثقافة منحته خمسة سطور زيادة على خبر (غراس) مع أنه يعترف بأن هذا الروائي يستحق خبراً أفضل من هذا.

مدّ أصابعه إلى رف الشِعر، قرأ ما يزيد على ثلاث صفحات ـ تلك طقوس أعتادها منذ صباه كما قال في حوار أدبي ـ ثم راح بصوت عالٍ يقرأ:

إنني أحتفي بنفسي وأُغني نفسي
وما سآخذ به، ستأخذون به
وكل ذرة في جسدي هي ذرة فيكم

ثم أعاد "أوراق العشب" إلى مكانه، طبطب على بطنه راضياً، فهو لا يشبه أقرانه من الكتّاب، هو يقرأ الشِعر، وهذا يعني الكثير عند النقاد، أما قال خمسة منهم أن لغته من عيون الشِعر؟

* *

فتح باب غرفته، سيأتي الشاي فوراً، هذا يعني ـ كما يعرف أهل البيت ـ أنه سيبدأ في الكتابة.

سيكتب عن الماضي، فهو كعادته لا يريد أن (يتحرش) بالحاضر، الموتى من البشر كما علّمه "توفيق الحكيم" لا يحكمون عليه ولا شأن لهم بنومه ويقظته.. سوف يبني أهرامات من الكلمات، لن يسمح لكائن مهما كانت منزلته واسمه وموهبته أن يكتب عملاً أطول من روايته.. نعم، ربما استغفله أحدهم ذات مرة ونشر رواية بجزئين لكن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

صحيح أن لا أحد ممن يعرف كان قد قرأ تلك الرواية سوى خبيرها في الرقابة، لكن مجرد ظهورها بهذا الحجم الباذخ الضخم يعني أن هناك من ينافسه حقاً ويريد الضحك عليه وعلى (تأريخه) البهي الطالع من جذور الأرض والشامخ نحو السماء.

شرب الشاي بمتعة ما جربها من قبل، إحساس مبهم بالفرح يسحبه شمالاً إذا ما شمّ أوراق "عوليس" ثم يجرجره جنوباً إذا ما تذكر "المسخ".. كاد يرقص عشقاً أمام "الأخوة كارامازوف" لكنه انكسر خجلاً عندما مرت عيناه على "الحب في زمن الكوليرا" وقرر أن يبدأ في صناعة (قنبلة الموسم) قبل أن يكتشف سواه نوع المواد السرّية التي يستخدمها.

نظر بفرح طفولي بريء إلى رفّ قريب من يديه، يضم أعماله الستة التي أخذت نصف شبابه ولم تعطه سوى (شهرة) لا تناسب ما ضاع من وقت وأوراق وسهر وسجائر وحبر، هو الذي حرم نفسه من النوم المبكر والتلفزيون والمتع الصغيرة التي يتنافس عليها أقرانه من كتّاب الدرجة الثالثة الذين (يحسدونه) على خطواته الشاسعة الممتدة صواباً إلى أكاديمية السويد.

أخذ روايته الرابعة ـ المغطّاة بالسيلوفين ـ مسح ذرات من التراب غطّت على آخر حرفين من اسمه، أحس بالفخر إذ تذكر أنها سوف تطبع ثانية، تماماً كما يفعل الحظ مع كبار الكتّاب في العالم.

آه كم أخذته النشوة إلى بحرها وأمواجها الساحرة، فهو سيقرأ عبارة (الطبعة الثانية) على تلك الرواية ويمشي بها إلى الناقمين على مجده العظيم، حتى تراها كلاب الصيد وهم يتآمرون على قلبه الطيب الذي ينبض حباً وإبداعاً وتواضعاً وشهوة للقراءة والخير والمعرفة.

ثم أعاد روايته إلى مكانها وقد شعر بالطمأنينة عندما رأى بعض ما ورد فيها.. نظر إلى الرواية ثانية كمن ينظر إلى امرأة يعشقها وقال مع نفسه:

ـ ٤٦٧ صفحة.

رفع جسمه بكل ما فيه من لحم وشحم وفرح وأفكار وشرايين وخطط وخيالات وصفات وأوردة وغضاريف، وقف عند الرف الثامن حيث الحكايات الشعبية وأغاني الشعوب وعاداتها ونوادر ألف ليلة، نظر إلى صف من الكتب الصفر التي تنام على خوف من أصابعه التي تمرح بين أوراقها وتصرخ في كل مرة يكتب فيها عملاً روائياً.

خطوط حمر ومزق من أوراق تركها بين الصفحات، إشارة إلى صفات يحتاجها أو حشرات قد لا يتذكر أسماءها ومعارك لا يدري أي سلاح استخدم فيها، وبنادق من سالف الزمان لم يمسكها أب أو جد، لكنه صار يتقن يوم صناعتها ويفهم العشرات ممن كان يمشي متباهياً بها.

كان يفكر: أن الرجوع إلى هذا العالم يغنيه بالمزيد من الصفحات وأنه الآن سوف يعرف كيف ينتقم وبصمت، من صاحبه الذي كسر الطوق

وقفز حواجز الممكن وأخرج رواية بجزئين كبيرين إذا ما رآهما أيما ناقد في المدينة سيقول فوراً:

ـ ما شاء الله.

أخذ من الرف الثامن، ثمانية كتب، ومن الرف العاشر خمسة وعشرين كتاباً ومن رف المجلات ما يزيد على عشرين مجلة، وفكر: "أن هذا سينفعه في إنجاز الفصل الأول، فقد عثر فعلاً على بداية كما الكنز، يمكن منها الدخول إلى ديوانية الرواية التي قرر مع نفسه أنها ستأتي في ألف وستمائة وسبعين صفحة، أي بزيادة سبعين صفحة على رواية من أراد أن يهزأ به، سيثبت لأبناء قريته أولاً ثم أقرانه وأبناء العاصمة ثانياً وأهله وذوي القربى ثالثاً ومستشاري أكاديمية السويد أخيراً كيف أنه تمكن من كتابة هذه القنبلة في زمن نسبي لم يسبقه إليه أيما كاتب عربي، إذا ما ذكر بعضهم الوقت الذي استغرقه (ديستويفسكي) أو (عبد الرحمن منيف) أو (ألبرتو مورافيا) في كتابة أعمالهم الطويلة، سيقول لهم: أنا أملك الدليل على أن نسبة الوقت معي كانت أقصر.. ربما سيلتفت البعض إلى نسب الوقت، لكن غيرهم سيضحك من هذا الشرط البائر، فهو يريد أن يقرأ (إبداعاً) بين السطور ولا يعنيه كم كيلو غراماً كان (وزن) الرواية.

لم يترك حشرة ولا بندقية ولا سمكة إلاّ وجاء على أنواعها، السطور تزداد والرواية تكبر، والكتب التي يستل منها المعلومات تدور حوله في طابور دائري، كتاب العقد الفريد تأليف أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، أخذ من صفحاته الفردية ما يزيد على ثمانين سطراً لئلا يشعر أحد المشاكسين بلعبته، فقد كان السطر الذي يسطو عليه يبعد عن السطر الذي يليه عشرات السطور، وهكذا الحال مع "التبيان في علم المعاني والبديع والبيان" و"المناحي الفلسفية عند الجاحظ".

لكنه في الربع الثاني من (روايته) رأى أن الكم الكبير من السطور لن يصنع أبداً ما يبتغيه لاسيما وأن سطور الربط التي كتبها بنفسه ـ كيما تبدو الرواية معقولة ومفهومة ـ لم تكن أكثر من مائة وعشرة سطور، هي كل ما تمكن من إبداعه لصناعة هذا العمل الخطير!

نظر إلى بقية الكتب، وأحس بضرورة المزيد من السطور، إنه يعرفهم، لا أحد منهم يقرأ، وحتى إذا كان يقرأ كيف به سيكتشف هذا الخليط من (طوق الحمامة) و(زرادشت) و(مصرع الكولونيل لجمان) و(حبز بوز) و(مغامرات الكابتن رنجل)؟

* *

انتهت قنبلة الموسم كما أرادها (المؤلف) وجاءت في ألف وستمائة وسبعين صفحة كما قرر فعلاً.. قرأه الخبير الأول والثاني والرابع والخامس (تخلّف الثالث عن الحضور بسبب إيمانه بموهبة الروائي).. أصاب كل واحد من الخبراء النعاس والقرف عند صفحة ما من صفحاتها، ولا يدري أي واحد منهم ماذا كانت نهايتها، غير أنهم، وبصوت واحد تم اتفاقهم عليها، فقد كان عليهم صرف مبلغ الشيك قبل نهاية الدوام الرسمي..

وما إن ظهرت قنبلة الموسم ورآها (مبدعها) حتى كاد أن يبكي فرحاً، فقد نظر إلى آخر صفحة منها واطمئن إلى عدد الصفحات ـ إنها تزيد سبعين صفحة على رواية صاحبه ـ ثم رفعها بيده اليمنى بعد أن صار غلافها وزناً آخر يضاف إلى وزنها، وتأكد أن الوزن جاء موازياً كما الحلم الذي طال وامتد أمام عينيه، ثم.. بدأ يكتب الإهداءات إلى النقاد!

أخذه الليل إلى نهر دجلة، راح يعوم عارياً بين أسراره وتموجاته الخفيفة، لا يدري كم هي المسافة التي قطعها من الجسر الحديدي باتجاه كرادة مريم، لكن الماء الذي يغطي جسده صار دافئاً، وفجأة سمع صوت رصاص كثيف أرغمه على الغوص تحت الماء باتجاه معاكس صوب المكان الذي بدأ السباحة منه.

لكن الرصاص لم يسكت، يسمعه من تحت الماء ولا يدري من أين وكيف سينقذ نفسه وقد سقط في (فخ) مفتوح ليس من نهاية أو إشارة إليه، وما كان يهمه أن يموت برصاص الحرس الرئاسي، لكنه يعوم عارياً تماماً، ولا يريد أن يراه الناس مقتولاً دون أن يستر عورته ثوب أو خرقة أو حتى ورقة توت يابسة.

رأى الجسر الحديدي أقرب ما يكون إليه، حدّد المكان الذي ترك فيه (بقجة) ملابسه، وبات صوت الرصاص يخفت ويوشك أن يختفي، أية حماقة اقترفها حين خلع الثياب كلها وسلّم أمره إلى دجلة المحشو بالرصاص والدم والمفاجآت؟

وقف عند البقعة الخضراء التي أخفى ثيابه بين طياتها، لكنه لم يعثر على شيء غير ورقة مكتوب عليها بخط متعرج يشبه خرابيش قطة:

ـ أشكرك جداً، بارك الله فيك، كنت بحاجة إلى ثياب كهذه.

وأربكه الحال الذي انتهى إليه، ماذا يفعل؟ كيف به يقطع المسافة إلى بيته عارياً لا شيء يستر لحمه وعظامه؟ إنها أكبر محنة عاشها بعد أيام اعتقاله في ذلك القبو المعتم قبل خمسة أعوام، فهناك رغم العذاب الذي رآه كان محترماً بين بقية المحجوزين، وثيابه أفضل مما يلبسه السجّان الذي يستخف به ليلاً ونهاراً، أما الحالة التي صار فيها الآن فهي كارثة بالمقاييس كلها، ذلك أن الطريق إلى بيته وبرغم ظلمة الليل أطول من أن يقطعه دون أن يراه رجل سكران عاد إلى بيته من خمارة آخر الليل، أو حارس مسلّح يحمي المقر الحزبي الذي ينتمي إليه، وفي أحسن الحالات سوف يضحكون منه وقد يتركونه بسلام حتى يصل غرفة نومه.

لكن ماذا سيقول لزوجته وهي الطاعنة في الريبة والشكوك إذا ما رأته (هكذا) كما خلقه الله؟ وماذا سيقول ابنه الصغير إذا ما رأى أباه دون ثياب وبلا أي شيء كما لو أنه مخبول هارب من الشماعية التي تحوي المجانين والمعتوهين؟

جلس على العشب البارد يفكر في حلّ معقول، أغمض عينيه عساه يعثر على فكرة أو أسلوب يأخذه إلى البيت وليكن ما يكون مع زوجته، فهذا أهون من أن يراه حارس المنظمة الحزبية ويحكي أمره إلى بقية الرفاق، وحينها لا أحد يعلم ما سيفعلون به وقد تأكد لهم كيف أنه تجاوز الخطوط الحمراء المسموح بها.

صار يكرر مع نفسه:

ـ من أراد الربح عليه أن يتعلّم الخسارة.

وماذا تراه سيربح وقد صارت الحياة محض خسارة ترتبط بخسارات أكبر؟ إنها فاجعة كبرى وحماقة ما بعدها حماقة أن ينزع ثيابه مرة واحدة ويعوم في نهر دجلة، على افتراض أن لا أحد يمكنه أن يعلم به أو يأتي هكذا في لمح البصر ليسرق ثيابه دون أن يترك أي شيء يستر عورته أو يحميه من مشاكل الطريق وهي أكثر من أن يتجاوزها مهما أسرع أو طالت خطاه الريح والعواصف.

أحس في لحظة من الزمن، أن ما يجري ليس غير حلم أو كابوس سوف يصحو منه بعد قليل، لكنه يرى أصابعه أمام عينيه، بل راح يعض على إبهامه بقوة، حدّ أنه كاد يصرخ، وهذا ما أرغمه على قرار واحد لا مفر منه، هو أن يمشي بسرعة إلى بيته مهما كلفه ذلك من خسائر ومفاجآت، فهذا أفضل من البقاء قرب النهر كما اللصوص، لاسيما وأن الفجر يوشك أن يفتح أبوابه بعد ساعة أو ساعتين.

ربما كانت الساعة هي الثالثة بعد منتصف الليل، وهذا يعني أنها الثالثة بعد منتصف الخوف، لا أحد في الممرات والشوارع، وقد يكون حارس المقر الحزبي قد اطمئن إلى نوم الدنيا بأسرها، لذلك راح يمشي راكضاً صوب بيته وهو يخفي عورته خلف يديه، وكان قد اختار الفروع الخلفية التي خلت من أي هسيس بشري، كلاب تنبح، قطط سائبة، شحاذ ينام قرب برميل الفضلات، لكنه يركض، يركض، ولم يلتفت أبداً إلى الوراء، حتى أنه أحس بالفرح يغمره إلى ما فوق رأسه وهو يرى بيته يلوح على مقربة من لهاثه ولهفته.

وهاهو يدخل حدود البيت فعلاً، فتح باب الحديقة واقترب من الباب الخشبي السميك، عندها أدرك أن مفتاح بيته ضاع بين ثيابه التي

سرقوها وما عليه غير أن يطرق الباب حتى تفتحه زوجته أو ربما يفتحه ابنه الصغير الذي يسهر عادة وهو يقرأ في دروسه التي طالما أرغمته على البقاء يقظاً حتى أذان الفجر.

أصابه خجلٌ عارم وهو يسأل نفسه عما سيقال عنه إذا ما دخل عارياً في هذا الوقت الذي تجاوز أي سؤال، لكنه مدّ سبابته إلى جرس الباب وهو يفكر أن الله أنقذه طوال ذاك الدرب من أي عابر أو حارس أو دخيل كما أنقذه من الرصاص الطائش الذي طارده في كرادة مريم وأن ما سيحدث مع أفراد عائلته أهون مئات المرات من أسئلة الجيران أو حارس المقر الحزبي.

رنّ جرس البيت ثلاث مرات، ولم يفتح له الباب الخشبي السميك مع أنه أطال الضرب على ذاك الزر المنحوس، وبدون أن يدري كيف جرى ما جرى مدّ يده اليمنى نحو أكرة الباب إذا بها مفتوحة، فتذكر أنه عافها ولم يغلقها حين جرجره الليل إلى دجلة.

وبسرعة أرنب مذعور مضى إلى دولاب ملابسه وأخذ "دشداشته" الرمادية، ثم راح إلى غرفة نومه، ومدّ جسده الخائف قرب زوجته على فراشه الناعم الوثير.

لم تشعر به زوجته وهو ينام لصقها في ذاك الصيف اللأهب، حتى انه لم يصدق نفسه: كيف تمكن أن يكون في البيت دون أي كارثة في الطريق!

* *

بعد خمس ساعات أيقظته زوجته حتى يمضي إلى وظيفته:

ـ يبدو أنك قد تأخرت، إنها الثامنة يا رجل.

قال بصوت تعبان كما لو أنه يأتي من تحت الماء:

ـ نسيت أن أخبرك البارحة بأنني لن أعمل هذا اليوم.

وفي الثانية ظهراً، استيقظ من نومه العميق، كانت زوجته تعمل في المطبخ وابنه الصغير لم يعد من معهد الفنون الجميلة بعد، غسل وجهه ويديه، وقبل أن تأتي زوجته بالطعام رآها تضحك وهي تقول:

ـ هل عرفت بما جرى ليلة أمس؟

أربكه السؤال فعلاً، واهتز هلعاً وهو يمسك أطراف دشداشته قبل أن يسأل عما جرى؟ إذا بزوجته تقول:

ـ لقد قبضوا على جارنا عارياً بعد أن سرقوا ثيابه وهو يعوم في نهر دجلة.

أي كلام تقول هذه المرأة الملفّعة بالشك والريبة والظنون، نظر إليها بحقد مكتوم، إنها كعادتها لم تزل تسأل عن كل شيء وتحشر أنفها في شؤون الجيران وأسرارهم.

ـ هل سمعتني؟ جارنا في المقر الحزبي مقيّد اليدين، مسكوه مبللاً من رأسه حتى قدميه وكان عارياً كما خلقته أمه.

ذهب فوراً إلى دولاب الملابس، لا يدري لماذا تحرك بهذه السرعة صوب ملابسه، إذا به يرى ثيابه التي مضى بها إلى النهر ليلة أمس لم تزل في مكانها وما من شيء ناقص فيها، حتى أنه رأى حفنة من ثياب خفيفة لا يدري من جاء بها ورماها قرب حزمة أوراق بيض راح يقرأ في واحدة منها ذاك الخط المتعرج الذي يشبه خرابيش القطط:

ـ أشكرك جداً، بارك الله فيك، كنت بحاجة إلى ثياب كهذه!

١٧ نيسان ٢٠٠٤

تأكد له وهو يدخل البيت أن شيئاً ناقصاً بين أثاثه وممتلكاته.. منذ رحيل زوجته وحاجيات البيت في حالة فقدان، لكنه لم يتمكن من حصر شيء أو تحديد شيء مفقود، الفراش على حاله في غرفة النوم، الطنافس المصرية التي اشتراها من خان الخليلي لم تزل في مكانها، والصحون المزخرفة بالنقوش اليابانية لم ينقص منها حتى نقش واحد، أحذيته وثيابه وبدلته الرمادية المخططة باللون الرماني الغامق وكذلك قمصانه الحرير والكتّان التي ابتاعها من دمشق وبيروت لم تزل في دولابه الخشبي الكبير، وبرغم ذلك من المؤكد أن شيئاً في بيته يختفي بين يوم وآخر، يصحو ليلاً ويفتش الزوايا ونهايات الجدران وتحت السرير، حتى يتأكد من حقائبه الخمس التي تضم الكتب المهداة إليه والتي يحتفظ بها في الحقائب الجلدية حرصاً عليها من الغبار الذي يملأ رفوف مكتبته المحشوة بمئات الروايات والمذكرات ودواوين الشعر ومناهل المعرفة، وفي الصباح، في كل صباح يمر عليه يزداد يقيناً "أن شيئاً في البيت قد اختفى" ويوجعه الإحساس أن ثمة من يقتحم البيت في غيابه، مع أن باب البيت المصنوع من خشب الزان لا يمكن فتح أقفاله الثلاثة، ومن العسير جداً مرور كلب أو جرذي من خصاص النوافذ المشبوكة بأسلاك جارحة لا يمكن

قلعها أو حتى فتح كوة صغيرة فيها، فمن يا ترى يدخل البيت في غيابه وماذا سرق منه إذا كان هو نفسه لا يدري حقاً ما الذي سرقوه؟!

يتأكد يومياً بعد رجوعه من الوظيفة، أن بيته في أمان وأن لا أحد في غيابه تجاوز العتبة، لكنه يكرر البحث عن شيء آخر أحس بفقدانه تواً، ويأخذه الشك أن البيت قد تعرض ثانية لغزو خاطف.

زوجته رحلت عنه منذ عامين، تمّ الطلاق بينهما دون ضجة أو مهر متأخر أو عتاب، هكذا اتفقا على الفراق، قالت "أرجو أن تجد السعادة ذات يوم فقلبي معك" وقال لها عند باب المحكمة "أرجو أن يسامحني الله إذا كنت قد أسأت إليكِ يوماً".. وانتهى كل شيء، ومن غير الممكن أن تأتي زوجته لتسرقه، فهي لا تحتاج إلى شيء مما يملك، لاسيما وقد أعطاها كل ما كان لها من ذهب وعطور وملابس، بما في ذلك خاتم السيلوتير الذي ربحه بلعبة روليت في كازينو لبنان في أول رحلة لهما بعد شهر العسل.

حذف من رأسه أي افتراض بشأن زوجته، فهي أشرف من ذلك بمليارات الفراسخ ولها من عفة النفس ونظافة اليدين ما يدفعه إلى البكاء إذا ما فكر في أمر كهذا.

من الذي يسرقه حين يمضي إلى وظيفته؟ وإذا كان السارق قد أخذ من البيت بعض ما كان فيه، فما هو الشيء المسروق إذا كان هو نفسه أعجز ما يكون عن تحديد ذلك؟

أمعن في شرب الخمرة، ليلة بعد ليلة، حتى أوشك على إدمانها، هو الذي كان يرفض أن يدخن سيجارة واحدة في أيام الشدائد، فماذا جرى في حقل أيامه التي استباحوها على غفلة من براءته وغفوته؟

حين طردوه من الحانة

بعد منتصف الليل

عاد إلى بيته
أغلق الباب
لكنه نسي نفسه في الخارج[1]

ثم عاد إلى زوايا البيت عساه يكتشف الشيء الذي اختفى، الشيء الذي سرقوه، ولم يعثر أبداً على ذاك الشيء الذي يظنه قد اختفى من أركان البيت.

الساعة هي السادسة والربع، وإذا ما رآها في الجانب المعكوس من مرآة البيت تكون السادسة إلاّ ربعاً، لم ينتبه أبداً إلى فوارق الوقت على تلك الساعة برغم أنه عاش في هذا البيت أكثر من ثلاثين سنة، وفجأة، تساءل عما يدور في رأسه من خفايا، كما لو أنه تذكر أسراره الدفينة التي لا يدري أحد بها، راح يضحك من نفسه وقد تذكر أنه منذ أمد بعيد، بعيد جداً، كان قد نسى رؤية نفسه في المرآة، امحت ملامحه ولم يعد يتذكرها، ربما منذ رحيل زوجته قبل عامين، ترك المرايا دونما سبب، كما لو أنه ما عاد بحاجة إلى رؤية وجهه!

حينها تحرك من مكانه، نهض فوراً، ربما قفز مثل أرنب مذعور، في طريقه إلى تلك المرآة المهملة قرب باب الحمام، نظر إلى المرآة، نظر بشيء من (الوله) إليها، نظر إليها كثيراً بعد عامين على نسيانها، فات ما يقرب من نصف ساعة وهو يحدق في ذاك الشيء الفضي اللاّمع الذي أهمله منذ أمد بعيد، بعيد جداً، منذ أن رحلت زوجته، وفي تلك اللحظة المخطوفة من الزمان، اكتشف ما كان قد ضاع منه، الشيء الذي اختفى تماماً من بيته وربما سرقوه.

ومن يومها كفّ عن البحث واكتفى بالسؤال.

---

(١) قصيدة عدنان الصانع

تلك كانت أول مرة أرى فيها "المجتمع المخملي" حسبما يصفونه في الروايات والسينما والمجلات الخفيفة، ابتسامات خارج الوجوه، معاطف من فرو الثعالب وجلد التماسيح، خواتم كثيرة من ذهب وماس، فرقعات الشمبانيا ورائحة الكافيار، سجاد كاشان من مدينة (قُم) وطنافس من دمشق واستانبول، وملامح بشرية لم تعرف الحزن طوال حياتها.

وصلتني دعوة خاصة لقراءة أشعاري في قاعة "الباشوات" التي رأيتُ على جدارها (ممنوع الدخول لغير الأعضاء) فانتابني إحساس غريب دفعني للوقوف عند بابها البلوطي العريض، فأنا لست عضواً في مكان باذخ كهذا، وينبغي الرجوع من حيث أتيت، لكن السيدة (عفاف الزين) أخذتني من يدي وهي ترحّب (بالشاعر الكبير) الذي نسيته ورائي وأنا أدخل إلى عطر الخزامى وروائح المسك والعنبر والخشخاش والأبنوس، إذا بي أمام شخصيات طالما رأيتها على شاشة التلفزيون وعلى أغلفة المجلات وكلهم يصفقون لعملاق الشعر العربي الذي تأكد لي بعد دقائق أنه (أنا) وليس أي شخص آخر!

أجلسوني على أول مائدة في الصفوف التي تلاصق مسرح الباشوات، رأيت حولي عشرات النساء والصبايا وهنّ يرفعن أياديهن

تحية لهذا الشاعر الذي يسكن جلدي، أظنّني ذهبتُ طائراً إلى فضاء بعيد وأنا أغنّي طرباً بين البساتين والحسناوات ورائحة الأناناس والكمثرى، وفجأة سمعت عفاف الزين وهي تقول من وراء منبر الشعر:

ـ سيداتي، سادتي، أعضاء الباشوات الكبار، يشرّفني اليوم أن أقدم لكم الشاعر الكبير، أستاذنا الذي علّمنا المحبة والتأمل والحرية، شاعر العرب المحبوب: أبو نصر الطائي.

أغرقني التصفيق في حالة من الغرور والخوف والشلل لم أعشها أيام كنت أقرأ الشعر في اتحاد الأدباء أو على سلالم الجامعة المستنصرية، ذلك أن من يصفق لي في هذا المكان ليس أقلّ من وزير أو قائد عسكري كبير، بينهم أولاد رئيس الوزراء وحاشية القصر الرئاسي، إلى جانب حفنة من أشهر المطربين والممثلين وعارضات الأزياء، هناك مطرب أكثر مني شهرة يجلس لصق الفنانة الحلبية الفاتنة (سلمى ملص) وهي تنفث دخان سيجارتها على أهدابه في مشهد شبقي لم يلتفت أحد إليه، فقد راح صوت عفاف الزين يؤكد ثانية على صعوبة ما أنجزته حين أقنعت أكبر شعراء العراق حتى يأتي بنفسه ويقرأ الشعر في قاعة الباشوات التي حظيت في السابق بزيارة نجوى كرم وهيام يونس وصلاح أبو سيف وعبد الحليم حافظ وفيسلافا شيمبورسكا الحائزة على جائزة نوبل عام ١٩٩٦ وأن تأريخ القاعة (كما تقول عفاف الزين) يمتد إلى أجاثا كريستي التي كتبت اسمها في سجل كبار الزائرين منذ ما يزيد على سبعين سنة!

بعد كل اسم تذكره من النجوم يزداد التصفيق، حتى جاء الوقت الذي طلبتني فيه لقراءة حزمة من قصائدي، إذا بي أدخل في سرداب

معتم مشطوب فيه على ذاكرتي وأشعاري، جسدي لم يكن غير عجينة من غرورٍ طافحٍ وخوفٍ مبهم وشلل، وما إن مشيت معوجاً إلى سلالم مسرح الباشوات حتى خلت نفسي في يوم زفاف مهيب وعروسي معي، أصعد الدرجات بهدوء وأنا أفكر: ماذا سأقول لهم وقد نسيت كل شيء؟

لا أدري لماذا يضحك وزير الخارجية، وبماذا يهمس وزير الثقافة لزوجته؟ رحت أهمس قرب رأس عفاف الزين بأنني لا أتذكر شيئاً من أشعاري وأن المفاجأة الحلوة عقدت ذاكرتي تماماً، إذا بها تنقذني بسرعة البرق حين قالت:

ـ ديوانك "ما قاله التراب" عندي هنا، وقبل أن تنتهي من تحية الحضور ستراه أمامك فوراً.

وفعلاً رأيت أصابعها ترمي بما قاله التراب وهي تبتسم، فما كان مني غير أن قرأت لهم:

أما أعطيتني الأسباب
ثم قطعتِ أسبابي
فلا الأعداءُ، أعدائي
ولا الأحبابُ، أحبابي
فكيف حجبتني بالخلق
ثم حجَبتَ حُجابي؟

اهتزت ـ هكذا يقال عادة ـ القاعة بالتصفيق، أسمع كلمة (الله) من كل زاوية في المكان، إعجاباً بما أقول، إنهم يطلبون المزيد، وبرغم هذا ما يزال وزير الثقافة يحكي مع زوجته ووزير الخارجية يضحك دونما سبب، ولم أعبأ بهما، كنتُ وزير الشعر بلا منافس في زمن الباشوات، ومضيت

أقرأ في الصفحة ٣١ ما كنت أقوله عادة في أمسيات الصعاليك من أصدقائي:

[١] أنا المبعوث باسم الحب
من مهدي إلى لحدي
إذا نادى فوارسه
حملتُ لواءهم
وحدي
أنا المنذور للأشواق
لا عشاق من بعدي

قرأت لهم أكثر من عشرين قصيدة، عن العشق والحنين والحرب والمنافي والقمع والمعتقلات والغزل، قلت لهم إن البشر لا يشبهون الشجر، وأنني مشغول بالخمرة والشعر والجنون، مشغول بعمق البحر وأمواج الدموع، وقد "ناديتُ حين وَهنت، واشتعل الصبا، شيبا، وكان الرزق في المحراب، رمزاً يكشف الغيبا، وكانت عاقراً دنياي، ربٍّ، هَب لنا حُبا" فشبعتُ من التصفيق وإعجاب الحسناوات، اقتربتْ الساعة من ظلمة الليل، نزلتُ من المنبر الخشبي اللّامع، وأنا ألهث مثل ذئب جائع، جاءتني عفاف الزين وأخذتني إلى بوفيه السلاطين والملوك، شبعتُ من لحم الخروف الذي تركوه قرب أصابعي، أكلت أشياء لم أرها من قبل ولم أسمع بها، فقلت: شكراً للشِعر، يبدو أن له بعض الفوائد أحياناً.

* *

بعد منتصف الليل، خرجنا دفعة واحدة، أو هكذا ظننت، رأيتُ القادة

---

(١) الشعر من ديوان (صمتُ الكليم) للشاعر أحمد بخيت .

والوزراء والممثلين والمطربين وعارضات الأزياء (وكذلك الفنانة الحلبية سلمى ملص ومطربها الشهير) يصعدون الكاديلاك والبروش وبي أم دبليو، وفي لحظة خاطفة عجيبة من الزمن اختفى السادة الباشوات وبقيت وحدي.

كلا، لم أكن وحدي، ثمة مجموعة من الكلاب تتمتّع بنباحها، وحارس البوابة أيضاً ما يزال هناك، سألني بشيء من الوقاحة:

من أكون وكيف دخلت (والدخول ممنوح لغير الأعضاء)؟ ! فقلتُ له: أنا الشاعر أبو نصر الطائي جئتُ بدعوة كريمة من السيّدة عفاف الزين حرم السيد وزير الأوقاف وقرأت الشعر منذ الثامنة حتى منتصف الليل.

قال الحارس بشيء من الريبة:

ـ وأين سيارتك يا أبا النصر؟

قلت له:

ـ جئتُ كما أخبرتك مع عفاف الزين فأنا لا أملك سيارة ولا حماراً، أنا شاعر.

عندها قال الحارس وهو يغلق بوابة الباشوات:

ـ ستبقى معي حتى الصباح، فأنا مسؤول عن المكان وإذا ما اختفى أيّ شيء..

صرختُ به دون إرادتي:

ـ قلت لك أنا الشاعر أبو نصر الطائي، ألا تعرفني؟

لكن الحارس تأكد من البوابة كما تأكد من بندقيته وهو يسألني:

ـ ما رأيك أن نشرب الشاي؟

ثم ابتسم عن أسنان مثلومة صفراء وهو يقول:

ـ يعني شنو شاعر؟

لم أكن أملك ثمن الشاي في مقهى طرطوس، مات أبي يوم حصلتُ على شهادة الماجستير في طب العظام وبدأ الفقر يتسلل إلى دارنا بهدوء خبيث.

أكاد أرى طعم الشاي على ملامح الزبائن في المقهى، أمد أصابعي إلى جيوبي، فربما نسيت بعض الدراهم في زاوية ما، لكن رائحة الشاي ترفض أن تبتعد عني برغم أنني مشيت مسافة ليست قصيرة عن طرطوس.

لم أعد أحلم أو أفكر بالدكتوراه، بل قررت كسب المال في أيما عمل ينقذ عائلتي من الجوع، وهكذا خرجت إلى الشوارع عساني أعثر على مهنة شاغرة حتى إذا كانت غسل صحون في مطعم أو حراسة مبنى أو مسح زجاج النوافذ، ولم أفكر في وظيفة لدى الحكومة، فهذه حكاية سوف تطول أكثر مما تحتمل البطون.

وقفتْ قربي سيارة بي أم دبليو سوداء، نزل منها رجل أعرفه، أو هكذا ظننت عند أول نظرة، إذا به يبتسم وهو يقترب مني ويصرخ بي:

ـ كيف حالك يا جعفر؟

وتذكرته فوراً، هو نفسه غياث الغانم التلميذ الكسول الذي طالما

ضحكنا منه أيام الطفولة، لكن بدلته السوداء (أيضاً) أذهلتني، فهي من قماش لا يملكه سوى رجال العصابات من أغنياء العالم!

أخذني بقوة، بل جرجرني إلى عظامه وكاد يسحقني شوقاً وهو يكرر:

ـ جعفر العبقري، أذكى تلاميذ الدنيا.

ثم قال:

ـ تعال نشرب الشاي ونحكي عن سنواتنا الجميلة.

قلت له وأنا في حالة بلاهة لا تفسير لها:

ـ نشربه في مقهى طرطوس.

كان يحكي عن أشياء لا أتذكرها، بينما أخذتني نكهة الشاي إلى فرح طفولي ماكر، أظنه قال لي:

ـ لولا أنك يا جعفر ساعدتني في امتحانات البكالوريا وفي درس الحساب، لما تمكنت...

وما كنت أسمعه، ذهبتُ مع الشاي إلى واحة في شمال الشمال، تتساقط من أشجارها الكمثرى والبرتقال، ماذا فعل غياث الغانم حتى امتلك بدلة لا يلبسها سوى كبار الأثرياء؟!

... أن الناس [illegible] البلاد، لم ينقطع السلام عليه في كل شبر مشيه، حتى دخل مقهى طرطوس هبّ إليه بسرعة الرعد يوشك أن يشفطه بقبلة دونها ما يفعله المجانين، ولم أفهم السبب الذي جاء بطرطوس نفسه وهو يأخذه إلى أحضانه كأي عاشق متيمّ مع تكرار أن الحساب مدفوع سلفاً!

رقم سيارته ٤٤٤٤٤ وهو رقم ساحر يتموج في ضوء الشمس، لابد

أنه اشتراه كما يشترى أي شيء في عرض البلاد وطولها.. لذلك نزلت عن الواحة وتركت الكمثرى وشمال الشمال بعد أن رشفت الشاي، وبدأت أصغي وأسمع ما يقول:

ـ ماذا تشتغل الآن يا جعفر؟

نظرتُ إلى غياث الغانم ولم أقل أي شيء، إذا به ينفث دخان سيجارته في وجهي:

ـ يبدو أنك لست سعيداً برؤيتي؟

قلت بسرعة كمن استيقظ من نومه تواً:

ـ بالعكس يا غياث، لكنني منذ أن مات أبي وأنا أبحث عن عمل في هذه المدينة البائسة.

راح يأسف لموت أبي، ثم أعطاني سيجارة، تركني في حالة صمت وخشوع حتى انتهيت منها، وفجأة، ودونما كلام، أخذني إلى أفضل مطعم في حيّ البازار دون أن يسألني ما إذا كنت جائعاً، ركبتُ سيارته السوداء مكيفة الهواء وشممت عطر النارنج، سمعتُ أحمد عدوية يغني "حبة فوق وحبة تحت" وأنا في حالة انكسار وفرح، أنكسر مرة وأفرح مرة، مثل طفل تبوّل على نفسه فرحاً بعد أن حصل على هدية غالية.

سألني غياث عن كل شيء، كما لو أنه يريد الكتابة عني، حكيت له عن رسالة الماجستير وطب العظام وحالة البيت بعد رحيل أبي، كنت أقصّ عليه أسراري دون خوف أو تشذيب كما لو أنني أحكيها لنفسي، بل أخبرته كيف أنني تمنيت أن أشرب الشاي في مقهى طرطوس قبل أن أراه، ورميت أمامه حياتي منذ أن افترقنا قبل عشرين سنة وحتى لحظة الفقر التي ستمر بها عائلتي حتماً إذا لم أجد عملاً ينقذني من براثن الجوع.

راح يضحك مما أقول وهو يطبطب على ظهري ويكرر (لا بأس عليك) دون أن أفهم المعنى، رأيت طفلاً في العاشرة يمسح الأحذية أعطاه نصف دينار ثم اشترى ثلاث علب سجائر "مارلبورو" أعطاني واحدة منها ولم أقل أي شيء مع أنني تركت التدخين منذ إفلاسنا بعد وفاة أبي.

بعد ثلاث ساعات افترقنا، أعطاني كارتاً منمنماً باسمه وهو يقول:

ـ منذ يوم غد ستشتغل معي، لا تجزع، سأراك في مقهى طرطوس في التاسعة صباحاً حتى ترى المكان الذي ستعمل فيه، ولا تسأل عن الراتب، فهو أكثر بكثير من أي وظيفة، وتذكر أنك الوحيد الذي أنقذني من الرسوب في امتحانات البكلوريا.

ثم قال وهو يبحث عن شيء ما في جيب بنطلونه:

ـ إذا لم تجدني في التاسعة عند المقهى، عندك أرقام تليفوناتي، فأنا أشكو من عطب في ذاكرتي إذا كانت هناك امرأة حسناء على الخط.

وبما أنه راح يضحك، فقد ضحكت أيضاً، وقبل أن نفترق ترك شيئاً في جيبِ سترتي وهو يقول:

ـ هذا دين عليك من أول راتب تأخذه مني.

ثم مضى بسيارته السوداء وأرقامها التي تتموج مثل الماء، أنظر إليه بشيء من البلاهة والعجب، حتى اختفى تماماً.

* *

بعد أن تأكد لي أنه اختفى عن المكان الذي كنت فيه، مددت أصابعي إلى جيب سترتي كمن يمدها نحو عقرب، فرأيت خمسمائة دينار، كدت أسقط أرضاً من فرط الدهشة، كدت أسقط فعلاً من فرط الدهشة، فهذا (شيء) لم أمسكه بين يدي طوال ما مضى من حياتي!

وقبل أن تأخذني فورة الفرح بين جناحيها وتطير بي، رحت أقرأ في كارت غياث الغانم المنمنم بحروف ذهبية ساطعة، وهذه المرة سقطت فعلاً على رصيف الشارع، فهذا الرجل الذي طالما ضحكنا عليه وسخرنا من هشاشة عقله أيام طفولتنا وكان أكثر تلاميذ الأرض بلاهة وكسلاً، هو نفسه الذي كتب في كارت معلوماته: غياث الغانم، نصنع مكبات الزبالة ونرفع النفايات عن الشوارع والبيوت، من أجل عاصمة أجمل وأنظف، اتصلوا بنا.

وفي أسفل الكارت أرقام تليفوناته الثلاثة، أرضي وخليوي وثريا ثم موقعه على شبكة الأنترنيت ورموز بريده الالكتروني ورقم صندوق بريده في وسط المدينة، بل وأرقام الوكلاء في الشمال والجنوب!

سألت نفسي وأنا مازلت على رصيف الشارع:

ـ ماذا تراني سأعمل مع غياث الغانم؟ بل ماذا سأفعل بشهادة الماجستير؟

رأيت صباغ الأحذية الذي أعطاه غياث نصف دينار دون أن يمسح له أي شيء، حاول أن يساعدني حتى أنهض، لكنني شعرت بمتعة غامضة وأنا مرمي على الرصيف، أسأل نفسي: ترى كم هو راتبي إذا اشتغلت في مكب النفايات؟

رجعتُ إلى بيتي في أول المساء، أعطيت أمي أربعمائة دينار وقلت لها بأنني سأبدأ العمل في الصباح التالي، سمعتها (تهلهل) بصوت رخيم، فأخبرتها أن أبي قد مات منذ وقت قصير، فما كان منها غير أن تسألني عن المكان الذي سأعمل فيه وهي توشك أن (تموت) خجلاً.

سمعتها تكرر السؤال:

ـ ماذا ستعمل يا جعفر؟

بسرعة، قلت لها، كأنني خائف من شيء يطاردني:

ـ سأعمل ماجستير في جمع الفضلات.

وفي تلك اللحظة (ماتت) أمي فعلاً.

عمّان تموز ٢٠٠٤

من إصدارات المؤلف

عن دار الآداب. بيروت

نصف الأحزان. رواية. عام ٢٠٠٠

الطاطران. رواية. عام ٢٠٠٤

عن اتحاد الكتّاب العرب. دمشق

موجز حياة شريف نادر. قصص قصيرة. عام ١٩٧٥

لا تسرق الوردة رجاء. قصص قصيرة. عام ١٩٧٨

عن وكالة الصحافة العربية. القاهرة

جمهورية العوانس. مسرحيات. عام ٢٠٠٠

مختارات قصصية. عام ٢٠٠٠

في قطار السمك. قصص قصيرة. عام ٢٠٠١

سيدنا الخليفة. قصص قصيرة. عام ٢٠٠٣ (طبعتان)

صندوق الأخطاء. رواية. عام ٢٠٠٣ (طبعتان)

شارع المتنبي. كتابات في النقد. عام ٢٠٠٤

عن الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة

الحب رمياً بالرصاص. قصص قصيرة. عام ١٩٨٥

مطر تحت الشمس. قصص قصيرة. عام ١٩٨٦

لا عشاء بعد الليلة. قصص قصيرة. عام ١٩٨٧

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت

الكوّاش. قصص قصيرة. عام ٢٠٠٠

بعد خراب البصرة. قصص قصيرة. عام ٢٠٠٠

حياتي في قصصي. سيرة أدبية. عام ٢٠٠١

سوق السراي. كتابات في النقد. عام ٢٠٠٢

أبو الريش. رواية. عام ٢٠٠٢

باب القشلة. كتابات في النقد. عام ٢٠٠٣

حمار على جبل. رواية. عام ٢٠٠٤

عن وزارة الثقافة. بغداد

طائر الحقيقة. قصص قصيرة. عام ١٩٧٤

مرة واحدة وإلى الأبد. قصص قصيرة. عام ١٩٧٩

امرأة في البريد. قصص قصيرة. عام ١٩٩٠

ليلة السحلب. مسرحيات. عام ١٩٩٤

من أي بلاد أتيت؟. قصص قصيرة. عام ١٩٩٩

ISBN:2-84305-803-X